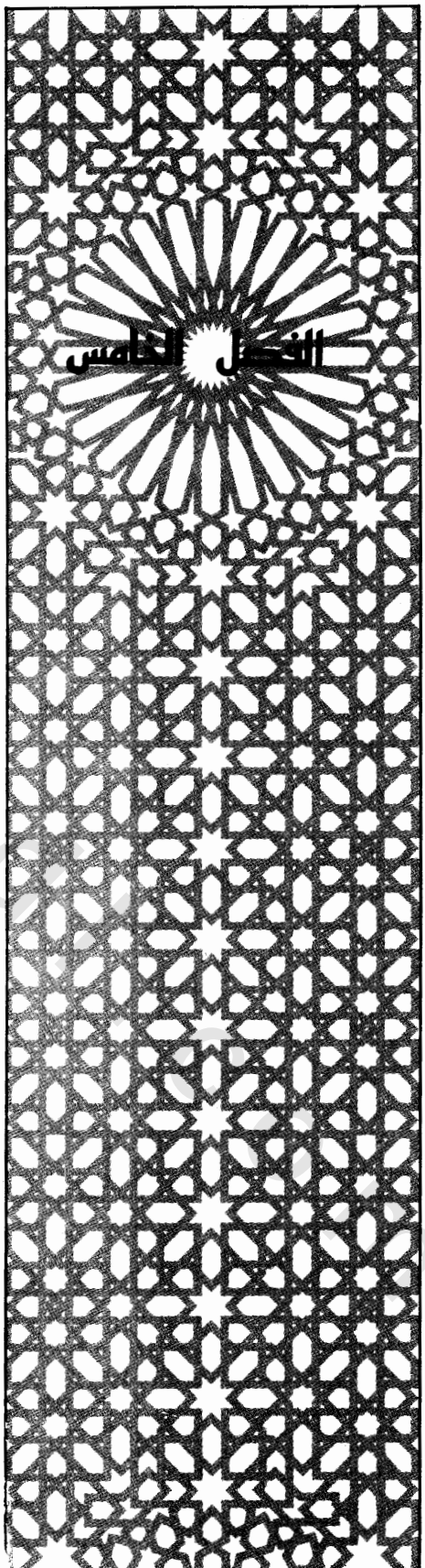

تفسير قصة أصحاب الكهف فى ضوء المعلومات التاريخية والمكتشفات الأثرية

obeikandi.com

obeikandl.com

تفسير قصة أصحاب الكهف فى ضوء المعلومات التاريخية والمكتشفات الأثرية

لعله يمكننا بعد ما تقدم أن نقدم للقارىء التفسير الصحيح لقصة أهل الكهف، وهو فى الواقع ليس من وضعنا فنحن لسنا ممن تمرسوا بالتفسير أو ألموا بقواعده وأسراره، وإنما هو مستخلص من التفاسير المختلفة التى وضعها المفسرون على اختلافهم، أخذنا منهم ما رأيناه متفقاً مع نظريتنا، وما نعتقد أنه صحيح، خاصة أن إلمام المفسرين بالقصة المسيحية قد تسلط عليهم بدرجات متفاوتة، فجعلهم يغفلون عن كثير من المعانى التى تتضمنها الآيات الخاصة بقصة أصحاب الكهف.

فالذين قالوا إن قصة النيام السبعة هى قصة أصحاب الكهف، فاتهم أن يلاحظوا أوجه الاختلاف الكثيرة بين القصتين، وهو اختلاف واضح سواء من حيث المغزى، أو من حيث الأحداث التى وقعت، أو من حيث الظروف التى جرت فيها أحداث القصة، أو المعجزة، أو من حيث ما اكتنفها من ملابسات، وهو ما أوضحناه فى الفصول السابقة.

وعلى الرغم مما فى قصة أهل الكهف -كما أوردها القرآن الكريم- من إيجاز شديد فإنها أوفى بكثير من قصة النيام السبعة المسيحية، مع ما فيها من تفاصيل مسهبة، فالقصة القرآنية من قبيل ما قل ودل، وهى مستوفية للشروط التى تجعلها مقبولة من الناحيتين المنطقية والعلمية، بعكس القصة المسيحية التى تخلو تماماً من هذه الشروط، مما يجعلها لا تزيد على أن تكون مجرد أسطورة، وهو ما وصفها به بعض العلماء بحق.

وسوف نتبع فى عرضنا للقصة الإسلامية أسلوب تفسير الآيات كما وردت فى كتب التفسير، معتمدين كما سبق أن قلنا، على الآراء التى نرجح صحتها واتفاقها مع منطق القصة القرآنية، وعلى الوقائع التاريخية، سواء ما كان منها متوفراً فى المصادر التاريخية الغربية وقت وَضْع المفسرين لكتب التفسير المختلفة، ولكنهم لم يطلعوا عليه لسبب أو لآخر، أو ما استجد من وقائع بعد وضع تلك الكتب، ونحن إذا أمعنا النظر فى سورة الكهف فسوف نلاحظ أن أولها يتضمن إنذاراً للذين يقولون إن الله قد اتخذ ولداً:

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (١).

ويصفهم بأنهم: ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢).

فهذا الجزء من السورة ليس مقطوع الصلة بالجزء الذى يليه، والذى يتحدث عن أهل الكهف، بل هو منه بمثابة المقدمة أو المدخل، ويدل بصورة واضحة على أن حادثة الكهف وقعت بعد أن شاع الاعتقاد لدى بعض المسيحيين أن المسيح هو ابن الله، وذلك نتيجة لما روجه «بولس» وشيعته فى سعيهم الى جذب جماهير الوثنيين فى الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية، باللجوء إلى المزج بين عقائدهم والمسيحية.

ولعله يجدر بنا أن نولى هذه المسألة قدراً أكبر من الاهتمام، نظراً لما يحيط بها من غموض ساعد على شيوع الاعتقاد لدى الكثيرين، بأن المسيحية قامت منذ البداية على أساس الاعتقاد ببنوة المسيح لله تعالى، أو على الأقل أن هذه العقيدة قد قوبلت منذ البداية بالقبول من جانب المسيحيين جميعاً، وهذا ليس من استنتاجنا، وإنما هو وصف لوضع حقيقى كان ولا يزال قائماً، ولست أدرى كيف لم يفطن إليه المفسرون المسلمون الذين بهرتهم قصة النيام السبعة، فجعلهم ذلك يغفلون عما فيها من أخطاء صارخة، أهمها ما قيل من أن الفتية الذين فروا الى الكهف إنما فعلوا ذلك هرباً بعقيدتهم التثليثية من حاكم وثنى يريد أن يكرههم على عبادة الأوثان، فى حين أن الشرك بالله بالادعاء أن له ولداً وزوجة لا يقل

(١) سورة الكهف، الآية ٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٥.

عن عبادة الأوثان إن لم يكن يزيد عليها، فهو أعظم الكبائر الذى قال الله فيه إنه:

﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (٣).

فكأننا حين نردد ما زعمه الأساقفة من أن الله قد شمل برعايته الفتية السبعة الذين اعتنقوا المسيحية كما تصورها الكنيسة، نعترف بأن المشركين فى حماية الله، وهذا غير صحيح، ولكن الصحيح أن هؤلاء الفتية لم يكونوا مسيحيين بالمعنى المعروف اليوم، وإنما كانو مسيحيين بالمعنى الصحيح، وهو الذى تعده الكنيسة معنى منحرفاً وتعتبر من يؤمنون به خارجين عليها ومهرطقين.

ويذهب غالبية المفسرين المسلمين إلى أن الذين عناهم الله بقوله:

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤).

هم النصارى واليهود والمشركون من العرب. وهذا المذهب أصح من مذهب القلة التى ترى أن المقصود بهم المشركون من قريش، اعتماداً على قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٥).

الذى فسروه على أن الرسول ﷺ كاد أن يهلك حزناً وألماً بسبب رفضهم دعوته إياهم إلى ما يحييهم وهو الإسلام، ونسى أصحاب هذا المذهب أنه كان فى قريش من اعتنق المسيحية، فضلاً عن غيرهم من عرب الحيرة وغسان وغيرهما.

كذلك فإن اليهود كانوا هم الذين حرضوا كفار قريش على توجيه السؤال الخاص بأصحاب الكهف إلى الرسول، وقد كان ﷺ يتوقع أن يكون أهل الكتاب، سواء منهم اليهود أو النصارى أول من يؤمن بدعوته، خاصة أن التوراة والإنجيل قد تضمنا البشارة به، وهذا فى الواقع أدعى إلى الحزن والكمد من رفض قريش له، ومحاربتها لدعوته التى كانت أمراً متوقعاً وهم الموغلون فى الشرك، المتمسكون بعبادة الأوثان، ومن المعروف أن حزن الإنسان وضيقه وأسفه يكون

---

(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٤) سورة الكهف، الآية ٤.

(٥) سورة الكهف، الآية ٦.

أشد وأقوى إذا كان العناد والمكابرة والكيد ممن يعلمون أنه على حق وينكرون ذلك، وليس ممن لا علم لهم بصحة ما يدعوهم إليه ويلزمهم به.

كذلك فإن العرب لم يكونوا يقولون إن لله سبحانه وتعالى ولداً، وإنما كانوا يعبدون آلهة متعددة قالوا إنهم يتخذونها زلفى تقربهم إلى الله، أى وسطاء بينهم وبينه. ويقول ابن إسحاق: إن العرب كانوا يقولون: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله، ولم يكن استعمالهم لاسم الذات (الله) ومعناه (الإله) للدلالة على الإله الأعلى فحسب، ولكن للدلالة على عدة آلهة خاصة أيضاً، ولم يستعمل هذا الاسم للدلالة على الله الأوحد، إلا بعد بعث الرسول ﷺ (٦).

ويقول القرطبى (٧) إن قوله تعالى: (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) يقصد به أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقريش قالت: الملائكة بنات الله، فالإنذار فى أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قالوا: لله ولد.

ويرد ابن كثير على من قالوا إن العرب هم المقصودون بالآية بقوله: «وهذا قول فيه تخصيص من غير مخصص، والحق أن الآية عامة فى إنذار كل من ادعى هذه الدعوى، يستوى فى ذلك المشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى» (٨).

والذى نراه أقرب للصواب أن الآية لم تقصد اليهود، فهم - وإن كانوا قد قالوا إن العزير ابن الله - لم يعبدوه كإله ولم يجعلوه شريكاً لله فى ملكه، ولم يقولوا إن أمه إلهة كما فعل النصارى بعيسى وأمه عليهما السلام؛ ولذلك فإننا نرى أن الذين قصدهم الله بهذه الآية هم النصارى، وليس هناك خلاف بشأن تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٩).

---

(٦) سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ص ٢٠٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ج ٩، ص ٣٥٣.

(٨) المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ١٣٢.

(٩) سورة الكهف: الآيتان: ٧ و ٨

فالخطاب فيها موجه للنصارى الذين كانوا قد انصرفوا إلى اللهو والعبث، وتعلقت قلوبهم بالدنيا ومتاعها، يقول لهم: إن ما ترون على سطح الأرض من متاع وأسباب تولعون ببهجته وتفتنون بجماله، ليس إلا زينة عارضة أعدت لامتحانكم وابتلائكم. واليوم الذى ينتهى فيه هذا الامتحان ستقلب مائدة الترف هذه، ويطوى بساط اللهو واللذة، فتصبح الأرض مكاناً قفراً لا حياة فيه (١٠).

الأهمية الحقيقية لمعجزة الكهف:

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١١).

ومعنى الآية: «أتستبعدون على قدرة الله الذى خلق السموات والأرض، أن يرقد بضعة أناس ثلاثة قرون أو أكثر، ثم يوقظهم شباباً أصحاء كما أرقدهم؟ إن هناك مما خلقنا ما هو أعجب من ذلك». وهذا الكلام من الله سبحانه وتعالى إن دل على شىء فإنما يدل على القدر الحقيقى من الأهمية التى لقصة أهل الكهف، فهى معجزة بسيطة من معجزات الله الكثيرة التى تتفاوت فى الأهمية بحسب ما فيها من دلالة على قدرته سبحانه وتعالى، فَخَلْقُ السموات والأرض أعظم أهمية بلا شك، وخلق الإنسان، وتسيير الرياح، وحركة الأفلاك وغيرها تفوقها فى الأهمية، فمعجزة أصحاب الكهف، على الرغم مما تتضمنه من تحد للإنسان بخروجها على مألوف العادة وتعارضها مع قوانين الحياة. فإنها بالقياس إلى قدرة الله التى لا يرد عليها قيد تعد أمراً بسيطاً.

ولكن المفسرين تأثراً منهم بالقصة المسيحية بالغوا فى وصف الأحداث مبالغة غير مقبولة، فأضافوا من عندياتهم أحداثاً لا علاقة لها بالقصة، لا من بعيد ولا من قريب، بأن جعلوا فيها ملكين أحدهما اضطهد الفتية؛ لأنه وثنى، والآخر كرمهم عند استيقاظهم؛ لأنه مسلم أو مؤمن صالح، وأضفوا على الفتية أوصافاً غير صحيحة، فقالوا: إنهم من أشراف الروم، أو من أبناء ملوكهم، إلى غير ذلك مما تتضمنه القصة القرآنية. وفاتهم أن الله تعالى لو رأى أن فى ذكر مثل هذه

---

(١٠) المودودى، المرجع السابق، ص ١٤.

(١١) سورة الكهف، الآية ٩.

التفاصيل فائدة تعود على الناس لذكرها، فقد سبق أن ذكر الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً، وذكر العزير، وذكر فرعون وغيرهم وغيرهم. فلو أنه كان فى القصة ملك لذكره سواء فى أول القصة أو فى آخرها. ولكنه ذكر وبشكل واضح قوم الفتية وذلك فى قوله تعالى:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ (١٢).

وقَوْمٌ ــ على ما نعلم ــ غَيْرُ ملك. ولعل الذى دعا المفسرين إلى إضافة هذه التفاصيل المناقضة لسياق القصة ولمعانى الكلمات الواردة بها ـ هو اعتقادهم أن المعجزة يجب أن تكون شائعة ومشهورة، ومحل معاينة من جانب عدد كبير من الناس، وبالذات من علية القوم، أو من الحكام حتى تثبت صحتها ويتأكد حدوثها. وهو اعتقاد خاطىء تماماً؛ لأن كثيراً من المعجزات لم تكن كذلك، بل إن بعضها لم يكن محل مشاهدة إلا من عدد قليل من الناس، بل وأحياناً من شخص واحد كما هو الحال فى معجزة إحياء الطير التى ذبحها إبراهيم عليه السلام، ووزع أجزاءها على الجبال ثم أحياها الله، وكمعجزة إماتة الله للعزير ثم إحيائه له هو وحماره، وغير ذلك كثير.

وهذا فى الواقع لا يقلل من شأن المعجزة أو يدعو إلى الشك فيها، فهى تكون عادة موجهة إلى عدد من الناس بقصد إثبات قدرة الله بشكل أو بآخر فى مكان وزمان معينين؛ ذلك لأن أثر المعجزات - وهى بطبيعتها لا تدرك إلا بالحواس - لا يمتد إلى غير الجيل الذى عاينها وتحقق منها، أما الأجيال الأخرى فإن تصديقها بالمعجزة يكون تابعاً لإيمانها بالله وبقدرته، فلا يكون وجود ملك أو أكثر، من أسباب تصديقها للمعجزة أو إيمانها بها. ولكنها مبالغات المفسرين تأبى إلا أن تُقحم على القصة تفاصيل ليست منها.

موقع الكهف:

وأصحاب الكهف هم الفتية الذين اعتزلوا قومهم، الذين يعبدون مع الله آلهة أخرى، فلجئوا إلى الكهف حتى لا يفتنهم قومهم عن دينهم الذى يقوم على عبادة

---

(١٢) سورة الكهف، الآية ١٥.

الله الواحد الأحد، فسموا بأصحاب الكهف، وكما سبق أن ذكرنا فإن موقع هذا الكهف مختلف عليه، وإن كانت الغالبية من المفسرين والمؤرخين المسلمين، تذهب تأثراً بالروايات المسيحية، إلى القول بأن الكهف يوجد فى مدينة (أفسوس) بآسيا الوسطى. ومن هؤلاء الطبرى وابن كثير والزمخشرى وغيرهم من القدماء، ويقول المسعودى: إن موضع الكهف من أرض الروم فى الشمال، وإن الفتية كانوا من أهل مدينة (أفسيس) من أرض الروم، ويروى فى هذا الصدد ما حكاه أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى، تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندى، عن محمد بن موسى المنجم، حين أنفذه الواثق من (سُرَّمَنْ رأى) إلى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم، وهذا الموضع المعروف من بلاد الروم بـ(حارمى) وذكر المسعودى ما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم، وقتل من كان معه من المسلمين (١٣).

وذكر ابن كثير فى تفسيره أقوالاً أخرى، منها ما ذكره منسوباً إلى ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة، وهى مدينة على ساحل بحر القلزم [البحر الأحمر] مما يلى الشام. قيل: هى آخر الحجاز وأول الشام، وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت (١٤).

وفى قول آخر للزمخشرى أن موضع الكهف «بين غضبان وأيلة دولة فلسطين» فى حين قال ابن إسحاق هو عند (نينوى)، وقيل: ببلاد البلقاء، هذا فضلاً عما ذكر من أسماء لبلاد أخرى.

وعلى الرغم من تعقيب ابن كثير الذى قال فيه: «والله أعلم بأى البلاد هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه» فإن ذكره للروايات التى تقول: إن أصحاب الكهف كانوا من الروم، وذكره لأسمائهم يوحى للقارىء بأن الكهف كان ببلاد الروم، وهو نفس النهج الذى انتهجه معظم المفسرين المسلمين، الذين ذكروا الروايات المسيحية عن أصحاب الكهف، ليس ذلك وحسب بل إن بعض المحدثين الذين اهتموا بإثبات أن الكهف لم يكن موضعه فى

---

(١٣) مروج الذهب، ج ١، ص ٣٢٣.

(١٤) ابن كثير المرجع السابق، ص ١٣٥ هامش رقم ٢.

(أفسوس) ببلاد الروم، ذكروا روايات لتأييد ما ذهبوا إليه دون أن يفطنوا إلى أن مَن يمعن النظر فى هذه الروايات، لن يلبث أن يغلب على ظنه أن الكهف كان ببلاد الروم فعلاً.

من ذلك ما ذكره الأستاذ محمد تيسير ظبيان (١٥) من أن سعيد بن جبير روى عن ابن عباس أنه قال: غزونا مع معاوية المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم!! فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله تعالى ذلك من هو خير منك، فقال:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٦).

فقال معاوية: «لا أنتهى حتى أعلم علمهم، فبعث رجالاً وقال اذهبوا فادخلوا وانظروا فذهبوا فلما دخلوا بعث الله تعالى عليهم ريحاً فأخرجتهم» والمعروف أن الطريق الذى كان المسلمون يسلكونه عند غزوهم لبلاد الروم لم يكن يمر بالمنطقة التى قيل إن الكهف الحقيقى موجود بها سواء فى أيلة، كما جاء فى قول لابن عباس، أو فى المنطقة التى تم الكشف عن الكهف بها وهى قرب عَمّان، ولذلك فإن الأمر يقتضى إعادة النظر فى مثل هذه الروايات؛ لأن معظمها مختلق وموضوع، فلا يصح الاستناد إليها إلا بعد مراجعتها للكشف عن أوجه التناقض، سواء فيما تضمنته من وقائع، أو فيما بينها وبين غيرها وهو واضح لا يتعذر كشفه على المتخصصين.

ولعلنا ـ وقد أوضحنا فى الفصل السابق أن الفتية لم يكونوا من (أفسوس)، بل ولم يكونوا من الروم أصلاً، وإنما كانوا يهوداً اعتنقوا المسيحية الحقة، وينتمون إلى طائفة الآسينيين وشيعتها الأبيونية أو الفقراء ـ أن نجد فيما قاله ابن عباس وما قاله غيره أيضاً من أن موضع الكهف قرب «أيلة» فى المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن، الصواب الذى يتفق مع وقائع القصة وأحداثها، خاصة أنه قد ورد فى

---

(١٥) المرجع السابق، ص ٤٧.

(١٦) سورة الكهف، الآية ١٨.

بعض أشعار العرب فى الجاهلية إشارات إلى الكهف والرقيم، يفهم منها أنهم كانوا يعرفون موضعهما مما يدل على أنه كان قريباً منهم بحيث يمرون به، أو على الأقل يعرفون المنطقة التى يقع فيها.

من ذلك قول أمية بن أبى الصلت فى شعر له:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم فى الكهف هُمَّدُ

وكان أمية على دين النصارى الحق، يتردد على بِيَعِهِم التى توجد فى المنطقة الواقعة بين الأردن والجزيرة العربية، ولعله سمع بقصة أهل الكهف من بعض النساك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء يتعبدون. مثل: الراهب بحيرا، وورقة بن نوفل وغيرهما.

كذلك فقد روى أن الصحابى عبادة بن الصامت بعثه الخليفة أبو بكر رسولاً إلى ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، وأنه مر على مغارة فيها أجسام بالية، ويعتنى بها فى جبل الرقيم على مقربة من طريق القوافل بين الشام والحجاز، وهناك رواية أخرى تدل على أن المسلمين كانوا يعرفون أن الكهف ليس موقعه فى (أفسوس) كما يدعى النصارى. من ذلك ما رواه الرازى من أن القفال حكى عن محمد بن موسى الخوارزمى المنجم: أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم وقال: «فوجَّه ملك الروم معى أقواماً إلى الموضع الذى يقال إنهم فيه (يقصد أفسوس) قال: وإن الرجل الموكل بذلك الموضع أفزعنى من الدخول عليهم، قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم. قال: وعرفت أنه تمويه واحتيال، وأن الناس قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها من البلى، مثل التلطيخ بالصبر وغيره، ثم قال القفال: والذى عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أهل الكهف، ولا عبرة لقول أهل الروم: إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف» ويعلق ظبيان على هذه الرواية قائلاً: «وليت شعرى هل ثمة رواية تاريخية فى العصر الإسلامى المتقدم أقوى من هذه الرواية، لدحض مزاعم القائلين بأن موضع الكهف هو فى (أفسوس)»[١٧].

---

(١٧) محمد تيسير ظبيان، أهل الكهف، ص ٤٨.

كذلك جاء فى كتاب (الاعتبار) الذى صنفه الأمير أسامة بن منقذ، أحد قواد صلاح الدين الأيوبى، أنه زار الكهف ويصف ذلك فيقول: «وسيَّر معى نور الدين عين الدولة الباروقى ثلاثين فارساً فاجتزت فى طريقى الكهف والرقيم، فنزلت فيه ودخلت وصليت فى المسجد، ولم أدخل فى ذلك المضيق الذى فيه، فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معى يقال له (برشق) يريد الدخول فى ذلك الشق الضيق قلت له: صل برًّا. قال: لا إله إلا الله أنا حرام حتى لا أدخل فى ذلك الشق الضيق، قلت: أى شىء تقول؟ قال: هذا الموضع ما يدخل فيه ولد زنى، والله يعلم ما أصدق ما قاله، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا، ومعى فى الجند براق الزبيدى ومعه عبد أسود له كثير الصلاة أدق ما يكون من الحال وآدبهم، فجاء إلى ذلك الموضع وحرص بكل حرص على الدخول فما قدر فبكى المسكين وتوجع، وتحسر وعاد بعد الغلبة عن الدخول».

كذلك ذكر الأستاذ (ظبيان) (١٨) بعضاً مما كتبه عدد من المستشرقين ورجال الآثار عن الكهف والرقيم، منهم المستشرق (كلير مونت جانو) الذى كان قنصلاً لفرنسا فى القدس (فى العهد العثمانى) وزار الموقع القريب من عمان بالأردن فى عام ١٨٦٨ ووافق الجغرافى العربى المقدسى على أن الكهف الموجود به هو الكهف الوارد ذكره فى الروايات المسيحية والقرآن الكريم.

ومن الذين زاروا الموضع أيضاً باحث يدعى (ايزيل فيستر) كتب يقول: «وقد دلت الحفريات الأثرية فى قبور الكهف وما يجاورها، على أن الرأى العلمى يسير جنباً إلى جنب مع الوصف القرآنى لأهل الكهف».

وأخيراً وفى عام ١٩٦٢ ميلادية وفق الله تعالى الأستاذ محمد تيسير ظبيان إلى الكشف عن موقع الكهف بالقرب من عمان عاصمة المملكة الأردنية (١٩). وقد جاء فى التقرير الذى وضع عن الموقع الذى يوجد فيه الكهف: «إنه يقع على

---

(١٨) المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٩) ذكر الأستاذ رفيق وفا الدجانى فى كتابه «اكتشاف أهل الكهف» أنه هو الذى اكتشف الكهف، وأن الدور الذى قام به الأستاذ محمد تيسير الظبيان لا يزيد على مجرد تقديم بعض المساعدات المالية أو العينية باعتباره كان رئيساً لرابطة العلوم الإسلامية، المرجع السابق صفحة ٥٧.

السفح الجنوبى لجبل قليل الارتفاع (يسمى جبل الرقيم) يشرف على مناظر خلابة، وسهول واسعة يمتد البصر عبرها إلى مدى واسع، كما يبعث النظر فيها إلى التأمل والعبادة، إن الموقع منزو عن المارة بعيد عن الطريق المعبدة وعن (طريق عمان ــ مأدبا ــ الكرك ــ العقبة) مسافة ثلاثة كيلومترات. والكهف لا يمكن أن يراه المار من الطريق، ولا أن ينتبه إليه إلا إذا قرب منه ووصله».

ومن أبرز ما تم اكتشافه عقب الحفريات كوة أشبه بالنفق طولها أربعة أمتار، وعرضها ٤٠ ــ ٦٠ سم وترتفع عمودياً من أسفل الكهف إلى أعلاه، وفوهتها فى أرض المسجد المقام فوق الكهف، وقد عثر على لوحة حجرية سدت بها فوهة الكوة (النفق) وقد أشار إلى هذه الكوة الأمير أسامة بن منقذ فى كتابه (الاعتبار) عندما زار الكهف كما تقدم.

وقد تبين من الكتابات التى وجدت على جدران الكهف، وهى بالخط الكوفى، أن مسجد الكهف الذى أقامه المسلمون تكريماً لأصحاب الكهف قد جددت عمارته فى أزمنة مختلفة إحداها فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان عام ١١٧هـ، والثانية زمن (خمارويه بن أحمد بن طولون) فى عهده الخليفة الموفق العباسى سنة ٢٧٧هـ. والثالثة زمن قايتباى الملك الأشرف سنة ٩٠١هـ. أما الرابعة ففى سنة ٩١٥هـ فى عهد الملك قنصوه الغورى.

وكل هذا يدل على أن المسلمين كانوا يعرفون أن الكهف هو الذى ذكر فى القرآن وليس كهف أفسوس، وفضلاً عن هذه الأدلة التاريخية فإنه بعد كشف الكهف توفر دليل قوى بل وحاسم هو الدليل الجغرافى الخاص بموقع الكهف، ومدى انطباق آية الشروق المذكورة فى سورة الكهف على الموقع المكتشف تماماً، فقد جاء فى الآية الكريمة:

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾(٢٠).

ويقول البيضاوى فى تفسير الآية: «إن الشمس تميل عن الكهف ولا يقع

(٢٠) سورة الكهف، الآية ١٧.

شعاعها عليهم فيؤذيهم ، لأن الكهف كان جنوبيًّا ، إذا غربت تقطعهم وتصرم عنهم يمين الكهف وشماله لقوله : (وهم فى فجوة منه) أى وهم فى متسع من الكهف يعنى وسطه ، حيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس ، وذلك لأن باب الكهف فى مقابلة (بنات نعش) وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه ، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن ، وهو الذى يلى المغرب ، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه ، ويحلل عفونته ويعدل هواء ولا يقع عليهم فيؤذى أجسامهم ويبلى ثيابهم » .

وقد تبين أن هذه الأوصاف تنطبق كل الانطباق على هذا الكهف ، فإنه يتجه إلى الناحية القبلية والشمس تطل عليه حين تشرق ، وتبعث بأشعتها إلى مدخل بابه ، ولكنها لا تنفذ إلى داخله حيث توجد الفجوة التى كان الفتية يقيمون فيها ، ويستمر الوضع كذلك حتى الغروب .

وعقب الكشف عن الكهف الموجود بالقرب من عمان ، والذى تبين أنه هو الكهف الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، يقول الأستاذ محمد تيسير ظبيان (٢١) : « وفى سبيل استيفاء هذا الموضوع الجليل حقه من التمحيص والتدقيق وبالنسبة لما ذهب إليه رجال الكهنوت والمؤرخون المسيحيون ، وشايعهم فى ذلك بعض المفسرين والمؤرخين المسلمين من اعتبار كهف (أفسوس) الموجود فى الأناضول هو كهف الرقيم ، فقد كتبت دائرة الآثار الأردنية رسميًّا إلى سفارة الحكومة التركية فى عمان بتاريخ ١٩٦٢/٧/٢٣ وطلبت تزويدها بكافة المعلومات عن كهف (أفسوس) مع صور هذا الكهف ، وعما إذا كانت قد أجريت حفريات فى الموقع وغير ذلك من المعلومات التى تتعلق بالموقع المذكور» .

وبالإضافة إلى هذا الكتاب الذى تقدمت به دائرة الآثار إلى السفارة التركية فقد كلفت الدائرة (المستر شارلس هورتون) أحد الخبراء الفنيين فى هيئة الأمم المتحدة ، ومن هواة الآثار أن يتوجه إلى (أفسوس) ويزودها بصور ومعلومات عن الكهف المزعوم فى ذلك المكان ، وبالاستناد إلى الصور والبيانات التى تلقتها

---

(٢١) المرجع السابق ، ص٩٦ ، ٩٧ .

الدائرة من السفارة التركية ومن خبير الأمم المتحدة تبين لها ما يلى :

١ــ إن المسجد الوارد ذكره فى القرآن الكريم لا أثر له فى الكهف الموجود بأفسوس ؛ إذ لا يوجد فوقه أى بناء يدل على وجود هذا المسجد ولا يوجد بجواره أو على مقربة منه أى مسجد آخر.

٢ــ على أثر الحفريات التى أجريت فى كهف (أفسوس) ظهرت فيه مئات المدافن مبنية من الطوب، أما فى الكهف الذى اكتشف قرب عمان فظهرت ثمانية مدافن منقورة فى الصخر وهى بيزنطية استدل عليها من الزخرفة والنقوش التى عثر عليها.

٣ــ لا يوجد فى كهف (أفسوس) أى نقوش أو كتابات تدل على أنه هو المقصود، فى حين أن جدران كهف الرقيم فى عمان مليئة بالكتابات والنقوش والخطوط اليونانية والكوفية والثمودية.

٤ــ تبين أن باب كهف (أفسوس) يقع فى الشمال الشرقى، فآية الشروق لا تنطبق عليه، فى حين أن كهف الرقيم فى الجنوب، وآية الشروق الواردة فى القرآن الكريم تنطبق عليه تماماً.

٥ــ لا توجد فجوة فى كهف (أفسوس) فى حين أنه عثر فى كهف (الرقيم) على الفجوة الوارد ذكرها فى القرآن الكريم (وهم فى فجوة منه).

٦ــ إن تاريخ أقدم كنيسة فى (أفسوس) يرجع إلى القرن الأول الميلادى، فى حين أن المعبد (المسجد) الذى أقيم فى الكهف على أثر استيقاظ الفتية يرجع تاريخه إلى زمن الإمبراطور (ثيودوسيوس الثانى) أى فى القرن الخامس، وهذا يتفق مع وضع كهف الرقيم، وقد عثر فيه على نقود لهذا الإمبراطور مع قطع من الفخار البيزنطى.

الرقيم :

وقبل أن نبين للقارىء معنى الرقيم وهى الكلمة التى جاءت بعد كلمة الكهف (الكهف والرقيم) نعرض لما أثير حول معنى عبارة (أصحاب الكهف والرقيم) فمن أطرف ما قيل فى هذا الصدد، أن أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم، أى أن هناك فتية ناموا فى الكهف، وآخرين ناموا فى الرقيم، وهو ما يفهم مما ذكره البعض من أن موضع الكهف غير موضع الرقيم، وحتى بالنسبة

لمن قالوا: إن موضع الكهف هو مدينة أفسوس، فإنهم قالوا أيضاً: إن موضع الرقيم يقع فى بلاد الروم،ولكنه غير موضع الكهف، وعندهم أن أهل الموضعين، الكهف والرقيم كانوا من الروم أيضاً (٢٢).

أما الذين قالوا إن الرقيم يوجد بموضع فى بلاد العرب، فإنهم جعلوا هذا الموضع غير الموضع الذى يوجد فيه الكهف، ومن ذلك ما قاله سيد مظفر الدين نادفى (٢٣): إن الرقيم كانت تسمى شيلوه بالعبرية وبطرا باليونانية، وكانت قصبة شمال الجزيرة العربية تحت حكم المدينيين أولاً، كما ظلت كذلك فى عهد النبطيين الذين جاءوا بعدهم.

هذا فيما يتعلق بموضع الرقيم، أما فيما يتعلق بمعناه، فإن هناك أيضاً خلافاً بين المفسرين المسلمين حوله، فمنهم من قال إنه الوادى الذى فيه كهفهم، ومنهم من قال إنه القرية التى يقع الكهف بجوارها، ومنه من قال إنه الجبل الذى فيه الكهف، ومنهم من قال: «الرقيم» لوح من الحجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف، وقالوا: «الرقيم» الكتاب، ثم قرءوا: (كتاب مرقوم). ويقول ابن كثير: وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير الطبرى، قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل، وللمجروح: جريح.

وعلى الرغم من وجاهة هذا التخريج فإننا نرى أن ما ذهب إليه الذين قالوا ن الرقيم هو المكان الذى وجد فيه الكهف، سواء كان الوادى أو القرية أو المدينة أو الجبل، هو الأصح، وليس اللوح من الحجارة الذى كتب عليه موضوع الفتية وأسماؤهم وغير ذلك، وهو ما ذهب إليه العلامة أبو الكلام آزاد فى تفسيره الذى عنوانه «ترجمان القرآن» الذى وصل فيه إلى سورة الكهف، فهو يرى أن هذا المكان هو نفسه الذى ذكر فى التوراة باسم «راقم»، وقال إنه الاسم القديم لـ(بيرا) مركز الأنباط التاريخى الشهير، وهذا الموقع قريب من (إيلات) التى قال ابن عباس إن الكهف قريب منها، غير أن المودودى يرى أن راقم ذكرت فى

---

(٢٢) المسعودى، المرجع السابق، ٢١٤.
(٢٣) التاريخ الجغرافى للقرآن، ص ٧٤.

التوراة ضمن ميراث سبط بنيامين، وأن نفس السفر ــ سفر يشوع ــ يقول إن ميراث هذا السبط كان يقع غرب نهر الأردن وبحر لوط، حيث لا يمكن أن تكون فيه «بيرا» فإن أطلال «بيرا» توجد فى المنطقة التى يفصل بينها وبين ميراث سبط بنيامين منطقة يهودا وأدومية بأكملها، وعلى هذا الأساس تردد علماء الآثار فى العصر الحاضر كثيراً فى التسليم بأن «بيرا» و«راقم» مكان واحد، وعليه فقط ذهب المودودى إلى القول (٢٤) بأن «الرقيم» تعنى «النقش» أو «الكتاب» الذى نقشت فيه أو كتبت فيه أسماء الفتية وقصتهم.

ومع ذلك فإن اسم «راقم» ورد فى الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر العدد ضمن أسماء أربعة من ملوك مدين وهم: أوى وراقم وصور وحور. وذلك بمناسبة زحف بنى إسرائيل على مدين بأمر موسى والرب انتقاماً من أهلها، بسبب ما كان من إغواء بنات مدين للإسرائيليين، وجعلهم يتعلقون بعبادة بعلهم، ويقول الأستاذ محمد عزة دروزه (٢٥): «ولعل الأسماء أسماء رؤساء مدن واقعة فى منطقة مدين، والمعروف أن مدين كانت تقع فى شرق البحر الأحمر فى منطقة العقبة وكانت تمتد إلى المنطقة التى كانت تسمى «موآب»، والتى أصبحت فيما بعد دولة الأنباط، حيث وجدت «بيرا» أو بطرا وهو ما نعتقد أن «أبو الكلام» آزاد كان يقصدها حين ذكر بيرا؛ لأن بطرا أو البتراء كانت مركز الأنباط، ولعله قرأها خطأ بالحروف الإفرنجية، وإن كانت قد ذكرت هكذا، أى «بيرا» فيما كتبه (ديورانت) عن هروب اليهود إلى شرق الأردن واستقرارهم فى «بيرا». وقد أشرنا حالاً إلى ما ذكره سيد مظفر نادفى، من أن الرقيم كانت تسمى «شيلوه» بالعبرية وبطرا باليونانية وكانت قصبة بلاد النبط.

كذلك من المعروف أن المدن كانت ولا تزال تسمى فى كثير من الأحيان بأسماء الملوك والحكام والقواد العظام، مثل الإسكندرية وواشنجطن وغيرهما. وهكذا سميت راقم باسم ملكها أو حاكمها المسمى (راقم) الذى ورد اسمه أيضاً بين أسماء المدن التى ذكرها الأصحاح الثالث عشر من سفر يوشع، وفى الأصحاحات التالية له إلى الأصحاح العشرين.

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٤.

(٢٥) تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام، ص ١٦٣.

غير أننا لا نتفق مع الأستاذ سيد مظفر فيما ذهب إليه من أن الرقيم كانت تسمى شيلوه بالعبرية، وبطرا باليونانية حيث إنه جاء فى الأصحاح الحادى والعشرين من سفر يوشع أن شيلوه كانت فى أرض كنعان حيث يقول: «ثم تقدم رؤساء آباء اللاويين إلى ألعازار الكاهن وإلى يشوع بن نون وإلى رؤساء آباء أسباط بنى إسرائيل وكلموهم فى شيلوه فى أرض كنعان، وكنعان هى الجزء من فلسطين المجاور للحدود المصرية ويفصلها عن آدوم وموآب حيث قامت دولة المدينيين ثم النبط بحر لوط أو البحر الميت وبرية صين.

وكنا قد ذكرنا فى الفصل السابق أن موطن قوم أصحاب الكهف وهم شيعة الأبيونيين أو الزهاد (الفقراء) كما أطلق عليهم (جيبون) كان فى (بيرا) شرقى الأردن وهو ما رجحه أبو الكلام آزاد، غير أن موضع الاعتراض هو قوله إن «بيرا» هى «راقم» التى قيل إنها كانت فى ميراث سبط بنيامين الذى يقع غربى الأردن، وهو اجتهاد منه لا يلزم أن يكون مصيباً فيه، ومع ذلك فقد تبين من الكشف الذى اشترك فيه المرحوم محمد تيسير ظبيان فى عام ١٩٦١ أن المنطقة التى يوجد فيها الكهف الذى كشف عنه وتبين أنه الكهف الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم تسمى الرجيب وهو تصحيف للاسم القديم «الرقيم» حيث إن البدو ينطقونه هكذا «الرجيب» لأنهم كما هو معروف ينطقون «القاف جيماً.

وهناك أكثر من دليل على أن العرب عرفوا الرقيم كمكان، وقد سبق أن ذكرنا رواية الصحابى عبادة بن الصامت التى قال فيها: إنه مر على مغارة فيها أجسام غير بالية ويعتنى بها فى جبل (الرقيم) على مقربة من طريق القوافل بين الشام والحجاز، وكذلك قصة الصحابى سعيد بن عامر الذى جعله الخليفة عمر بن الخطاب على رأس جيش أنفذه إلى الشام، ويروى هذا الصحابى أنه أثناء سيره بالجيش ظن أنه ضل الطريق إلى وجهته، ولكنه ما لبث أن تبين طريقه عندما طلعت الشمس، ويقول: «فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادى وحققت تلك الأرض والجبل وإذا به جبل «الرقيم» فلما رأيته عرفته، فرفعت صوتى بالتكبير وقلت: الله أكبر، وكبر المسلمون لتكبيرى وقالوا: ما هذا الذى رأيته يا بن عامر؟ فقلت: وصلنا بلاد الشام وهذا جبل الرقيم، فقالوا: يا سعيد (وما الرقيم؟) فحدثتهم بحديث الرقيم.. قال سعيد: فعجبوا من ذلك ثم أقبلت بهم إلى الغار

(الكهف) فصلوا فيه، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان (٢٦).

ولعل هذه الرواية تكون أصح من الروايات التى ذكرت أن الرقيم يقع على طريق التجارة بين الجزيرة العربية والشام؛ وذلك لأنها تحدد موقع الرقيم بأنه قرب عمان حيث كانت الجيوش الإسلامية بقيادة الفضل بن العباس والزبير بن العوام، قد وجهت بأمر من أبى عبيدة بن الجراح قائد جيوش الشام لفتح عمان، حيث التقت مع الجيش الذى كان يقوده سعيد بن عامر.

كذلك أشار أبو عبدالله البشارى المقدسى إلى الموقع المسمى بالرقيم، مستشهداً بما ورد فى شعر كثير عزة فى قصيدته التى بشر فيها يزيد بن عبدالملك بالخلافة قال:

أمير المؤمنين إليك نهوى على البخت الصلادم والعجوم
إذا اتَّخذَت وجوه القوم نصباً أجيج الواهجات من السموم
فكم غادرن دونك من جهيض ومن فعنل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيدا بأكتاف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود إذا أتوه بنصر الله والملك العظيم

ويقول المرحوم الأستاذ محمد تيسير ظبيان (٢٧) إن الموقر والرقيم كليهما على مقربة من عمان وفيهما قصور أموية ورومية، كما توجد أنقاض قصور أموية أخرى فى تلك المنطقة، ويضيف إلى ذلك قوله: ويقول الأستاذ العابدى فى كتابه «الآثار الإسلامية» إن المقدسى المذكور بحث عن مكان قريب من قصر الموقر المعروف إلى أن اهتدى إلى قرية الرجيب (الرقيم) وقال إنها محرفة عن الرقيم، ولا سيما أن فى الغرب منها كهوفاً تسترعى النظر».

وجاء فى كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم): والرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير، ويزعمون أن من دخل من الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير. ولكن من يقرأ ما ذكره المقدسى يلاحظ أنه لم يقصد أن يقول إن هذه المغارة هى الكهف الذى لجأ إليه الفتية

(٢٦) الواقدى، فتوح الشام، ص ٧١.
(٢٧) المرجع السابق، ص ١٠٤.

وناموا فيه ؛ لأنه يروى قصة أخرى عن ثلاثة نفر الذين تحدث الرسول ﷺ عنهم (٢٨) .

ومع ذلك فإن ما قاله المقدسى عن المسافة بين الرقيم وعمان صحيح ، وذلك بعكس البطراء أو (بيرا) التى تزيد المسافة بينها وبين عمان على ذلك كثيراً ، ولما كان المقدسى جغرافيًّا معروفـاً ، فقد أخذ عنه من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين ، ولا سيما السائح الهروى الذى أثبت رأى المقدسى فى كتابه .

وممن أيدوا هذا الرأى ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) قال : عمان بلد فى أطراف الشام ، وكانت قصبة أرض البلقاء وبالقرب منها الكهف والرقيم .

ويقول الإصطخرى : « الرقيم مدينة قرب البلقاء ، وهى صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها فى صخر كأنها حجر واحد » .

ولجورجى زيدان (٢٩) رأى مختلف عمن سبقوه ، فهو يقول : إن العرب عندما شاهدوا

---

(٢٨) وقصة هؤلاء النفر كما رواها مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدىّ فسقيتهما قبل بَنىَّ ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمَّى ، فلم يزل دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء . وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى أتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة ففرج لهم ، وقال الآخر : إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ، فجاءنى فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ، قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فأخذه فذهب به . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى ففرج الله ما بقى . وهى كما نرى غير قصة أهل الكهف .

(٢٩) العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

آثار (بطرا) عاصمة الأنباط سموها الرقيم وهو، كما يقول، تعريب أحد أسمائها اليونانية؛ لأن اليونانيين كانوا يسمونها أيضاً أركه Arkae فحرفه العرب وقالوا الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم خزنة فرعون على الخصوص، واشتهر هذا المكان فى دولة بنى أمية، وكان ينزله الخلفاء وفى جملتهم يزيد بن عبد الملك، ونظراً لما شاهدوه من الأبنية والأساطين والنقوش، زعموا أنه المكان الذى كان فيه أهل الكهف، ورووا عنه أخباراً ذكرها المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم).

غير أننا نستبعد ما ذكره جورجى زيدان من أن خلفاء بنى أمية أقاموا مساكن لهم فى هذا المكان (البتراء) وإنما الصحيح أنهم أقاموا قصورهم فى المكان القريب من عمان، والمسمى بوادى الرقيم، حيث تم الكشف عن بقايا تلك القصور.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن جورجى زيدان لم يشأ أن يشكك فى القصة المسيحية التى ذكرت أن الكهف يوجد فى أفسوس، ولذلك لجأ إلى التشكيك فى الروايات الإسلامية.

وبغض النظر عن قرب أو بعد قرية الرقيم التى تحدث عنها الجغرافيون العرب وغيرهم، من موقع الكهف الذى كشف عنه قرب عمان، فإن ما قالوه يدل على أن الرقيم ليس حجراً عليه نقش ولا كتاب، وإنما هو مكان سواء كان جبلاً أم قرية أم مدينة، ولا نعتقد فى صواب ما ذهب إليه جورجى زيدان من أن الرقيم تحريف للكلمة اليونانية Arkae نظراً للاختلاف الواضح بين الكلمتين، فما هى العلاقة أو ما هو وجه الشبه بين أركى ورقيم؟

وهناك فضلاً عن كل ما تقدم دليل آخر يمكن استخلاصه من الملابسات والظروف التى أحاطت بلجوء الفتية إلى الكهف، والتى لم تكن تسمح أو تستلزم نقش أسمائهم فى لوح، أو كتابتها فى كتاب، فهم على عكس ما جاء فى الروايات المسيحية لم يكونوا مطلوبين من جانب الحكومة فى ذلك الوقت.

ولعل هذا يبدو بوضوح من القصة القرآنية، حيث لم يرد فيها ذكر لملك يطلبهم أو حكومة تطاردهم، وإنما كان لجوءهم إلى الكهف بمحض إرادتهم، فهم كما جاء ذكرهم فى القرآن الكريم:

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿٣٠﴾

أى أن ما فعلوه هو اعتزال لقومهم الذين يعبدون آلهة أخرى مع الله، ولا نظن أن الاعتزال يتطلب نقش أسماء المعتزلين فى قائمة، ووضعها على باب المكان الذى اعتزلوا فيه، أو إدراج أسمائهم فى كتاب ووضعه فى صندوق من النحاس، لعل الأجيال القادمة تعثر عليه وتطلع على ما فيه، وأى شىء هذا الذى ستجده فيه؟! أسماء جماعة رفضت أن تشرك بالله، وماذا فى ذلك، وقد كان الشرك متفشياً؟ ولقد كان هناك من يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ومع ذلك لم يكتبوا قصتهم فى كتاب!! ولكنها القصة المسيحية أوحت للمفسرين بذلك فغفلوا عن المعانى الواضحة فى القرآن.

فإذا قيل وكيف عرفهم الناس وتأكدوا من شخصياتهم؟ قلنا لهم إن هذه المعرفة وهذا التأكيد ليسا واردين بالمرة، سواء عند اللجوء إلى الكهف، أو عند الاستيقاظ فيه، فهم عندما أووا إليه لم يكن لهم أسر ينتمون إليها، فهم كما سبق أن قلنا من طائفة الآسيين التى تفرعت عنها شيعة الأبيونيين أو الفقراء، وكان المنتمون إلى هذه الشيعة وتلك الطائفة من الشباب الذين يتركون أسرهم للتفرغ للعبادة والتطهر، ولا يقربون النساء، ولا يتعاملون معهن، وكانوا يقيمون ـ كما كشفت لفائف البحر الميت ـ فى معسكرات فى الصحراء ينامون فى الخيام أو فى الكهوف، وهم عندما أووا إلى الكهف وأرقدهم الله لم يكن أحد يعتقد أنهم سوف يبعثون من نومهم، فهم إذا كانوا قد ماتوا فإن التقاليد لم تكن تتطلب نقش أسماء الموتى فى لوحات، وإذا كانوا لم يموتوا، ويعلم الناس ذلك، فإننا لا نعتقد أنه وجد قوم ينقشون أسماء كل من ينام منهم تحسباً لما قد يصيبه فى نومه.

ليس ذلك وحسب، بل إن الفتية عندما أووا إلى الكهف لم يكونوا يعتقدون أنهم سوف ينامون كل هذا الوقت؛ لأن الله شاء أن يكونوا موضوعاً لمعجزة من معجزاته، كذلك لم يكونوا يعتقدون أنهم سوف يقضون نحبهم فى الكهف بعد أن

(٣٠) سورة الكهف، الآية ١٦.

يمضى عليهم فيه فترة من الزمن طالت او قصرت، والدليل على هذا أنهم حملوا معهم نقوداً، ولا يمكن أن نتصور أن من يلجأ إلى الكهف ليموت فيه جوعاً وعطشاً يحمل معه نقوداً، فهم إذاً لم يلجئوا إلى الكهف إلا من أجل أن يمكثوا فيه ريثما يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه من كرب وبلاء، وهذا لا يحتاج إلى أن يكتبوا قصتهم أو ينقشوا أسماءهم، أو أن يفعل غيرهم هذا نيابة عنهم؛ لأنه كما هو واضح من سير الأحداث لم يكن هناك من يعرف شيئاً مما فعلوه.

كذلك فإن الفكرة التى كانت شائعة يومئذ أن ملكوت الله آت، وعلى المؤمنين أن يستعدوا له، أى أن القيامة قائمة والساعة آتية لا ريب فيها، وهو ما كان المسيح عليه السلام يردده وما فهمه الناس، بل أقرب الناس إليه وهم الحواريون، على أنه يعنى أن القيامة ستقوم بعد أيام أو شهور أو سنوات قليلة. ويقول شارل جنيبير(٣١) إنهم لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عن المسيح، إنهم لم يفكرو فى أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتى. فالعالم ــ عالم الظلم والخطايا ولذات الجسد ــ كان فى عقيدتهم، وشيك النهاية وكانوا يترقبون بين لحظة وأخرى توقف الحياة البشرية، وظهور المسيح المنتصر فى السماء، وكان هذا هو شعور المؤمنين عامة ومنهم الفتية.

وهكذا يتبين لنا أنــه لم يكن هناك لزوم لنقش أسمائهم، عندما أووا إلى الكهف، ليس ذلك وحسب، بل إنه تبين أيضاً من دراسة الفترة التى وقعت فيها الحادثة، أن عشرات أو مئات غير هذا العدد من الفتية أووا إلى الكهوف فراراً من الظلم، وهرباً من الاضطهاد، سواء أكانوا على حق أم على ضلال، فلماذا يكون هؤلاء الفتية دون غيرهم هم الذين تنقش أسماؤهم على لوح أو كتاب!!

وكما سبق أن قلنا فإن القصة المسيحية قد تسلطت على عقول المفسرين المسلمين، فجعلتهم يغفلون عن كثير من الحقائق التى فى القصة القرآنية، سواء ما كان منها صريحاً أم ما كان ضمنيًّا، من ذلك أنهم وقد صدقوا أن الفتية كانوا من الشرفاء أو من أقارب الحكام ــ كما تقول إحدى الروايات المسيحية ــ لم يتسرب إليهم الشك فى حقيقة وجود الرقيم، بمعنى اللوح الذى نقشت عليه أسماء

(٣١) المرجع السابق، صفحة ١٢٨.

الفتية ، فى حين أن الآيات تشير فى ضوح إلى أن الفتية كانوا من عامة الناس الذين لا حول لهم ولا طول ، كما أنهم كانوا من طائفة لا تؤمن بالحرب ولا تميل إلى العنف أو استخدام القوة ، ولذلك لجئوا إلى الكهف داعين الله أن يؤتيهم من لدنه رحمة ، وأن يهيىء لهم من أمرهم رشداً ، وقولهم بعضهم لبعض : (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) وهم فى هذه الحال يقفون موقفاً مغايراً لموقف قوم آخرين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فلم يأبهوا لهم ، وتمسكوا بدينهم وجاهدوا فى سبيله ، فكأن الله سبحانه وتعالى يعرض علينا أساليب مختلفة يتخذها المؤمنون إزاء الكفار وأعداء الحق .

ولقد رأينا كيف كانت طائفة الآسينيين لا تميل إلى العنف أو القوة ، وتجنح إلى الهدوء والسلام ، وتكره صناعة السلاح ، ولا تميل إلى استخدامه ، بعكس الطوائف والشيع اليهودية الأخرى .

فإن قيل : إن هذه الأسماء ربما تكون قد نقشت بعد استيقاظهم ، فإن لنا أن نتساءل بدورنا عمن يكون قد نقشها ؟ هل هم رجل الكنيسة فى (أفسوس) ؟ وقد تبين لنا بما لا يدع مجالاً لأى شك ، أن كهفهم لم يكن فى هذه المدينة ، كذلك سبق لنا أن تساءلنا عن اللوح المزعوم الذى قيل : إن أسماءهم كانت منقوشة عليه ، ولماذا لم تحتفظ به الكنيسة على الرغم من قرب العهد به بالمقارنة ، مع ما تحتفظ به هذه الكنيسة من آثار تزعم أنها مقدسة والله أعلم بحقيقتها ؟ أم يقولون : إن الذين نقشوا أسماءهم هم قومهم الذين بُعثوا بينهم فى المكان الذى يقع قرب عمان ، حيث الكهف والرقيم ، فنقول لهم : إن هذا أيضاً مستبعد لأن الفتية حين بُعثوا لم يكن هؤلاء القوم مسلمين ، كما سوف يتبين ، وإنما كانوا نصارى على مذهب (بولس) وما كان فى صالحهم أن يثبتوا هذه المعجزة التى كان أبطالها مؤمنين بالله الواحد ، لا يشركون معه لا المسيح ولا مريم ، ولا يقولون إن الأول ابن الله وإن الثانية زوجته وأم ابنه ، فهم لذلك لم يأخذوا من المعجزة إلا جانباً واحداً منها فقط ، وهو حقيقة البعث ، ويؤيد هذا الرأى ما وقع فيه هؤلاء من تضارب حول عدد الفتية أكانوا ثلاثة أم خمسة أم سبعة ؟ وفى روايات أخرى قال بعضهم : إنهم كانوا ثمانية ، وقال البعض : تسعة ، وقال البعض الثالث : إنهم كانوا اثنى عشر أو ثلاثة عشر . فما جدوى الرقيم إذن إذا كانت

أسماؤهم قد نقشت عليه أو كتبت فيه ؟!

والغريب فى الأمر أن بعض المفسرين المسلمين وقعوا فى التناقض، فبينما هم يفسرون الرقيم على أنه اللوح الذى نقشت عليه أسماء الفتية، أو الكتاب الذى أدرجت فيه أسماؤهم وكتبت قصتهم، فإنهم مع ذلك يفسرون قوله تعالى:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ (٣٢).

على أن الله سبحانه أراد أن يعلم ما إذا كان المختلفون فى أصحاب الكهف ــ وهم فريقان ــ استطاعوا أن يحصوا، أى يضبطوا المدة التى لبثوها فى الكهف، ومقتضى هذا أنهم لو كانوا قد نقشوا أسماءهم وقصتهم على لوح أو فى كتاب، كما يقول المفسرون، فمعنى ذلك أن الفريقين (الحزبين) لن يعجزوا عن إحصاء مدة لبثهم فى الكهف، ليس ذلك وحسب، بل إن قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٣٣).

هذا القول يدل على أن عدد الفتية لم يكن معروفاً، ومن ثم فإن أسماءهم التى قيل إنها نقشت فى اللوح (الرقيم) ليست صحيحة، على الأقل من ناحية العدد. فلو أنه كان هناك سجلٌّ نقشت فيه أسماؤهم لما اختلط الأمر على الناس، وما اختلفوا حول عددهم، ولذلك نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب فى أصحاب الكهف؛ لأنهم لا يعلمون عنهم شيئاً، وما يقولونه فى هذا الصدد ما هو إلا رجم بالغيب. وقد استثنى سبحانه من أهل الكتاب عدداً قليلاً هم الذين يعلمون العدد الصحيح للفتية (ما يعلمهم إلا قليل).

---

(٣٢) سورة الكهف، الآيات ١١، ١٢.

(٣٣) سورة الكهف، الآية ٢٢.

الحزبان المختلفان فى أهل الكهف:

هذا بالنسبة للكهف والرقيم، أما فيما يتعلق بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

فإن المفسرين اختلفوا فى معناه فالقرطبى يقول (٣٥): «الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا أنهم لبثوا قليلاً، والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعِثَ الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا فى مدة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين، وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية».

فى حين يذهب الزمخشرى (٣٦) إلى القول بأن الحزبين يقصد بهما المختلفون منهم (أى من أصحاب الكهف أنفسهم) فى مدة لبثهم فى الكهف، لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك، وذلك لقوله:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ (٣٧).

وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول.

وفى الجلالين: قال قائل منهم أى واحد منهم كم لبثتم. قالوا لبثنا: أى قال الستة الباقون مجيبين له، لبثنا إلخ. وقوله: قالوا ربكم. أى قال بعض الستة المجيبين أولاً لبعضهم بدليل الخطاب فى (رَبُّكم)، وإلا لو كان القائل جميعهم لقالوا ربنا.

أما النسفى، فإنه يقول فى تفسيره على هامش الخازن (٣٨) إن المقصود: المختلفون

---

(٣٤) سورة الكهف، الآية ١٢.
(٣٥) المرجع السابق، جـ ١٠، ص ٣٦٤.
(٣٦) الكشاف، ج ٢، ص ٤٧٤.
(٣٧) سورة الكهف، الآية ١٩.
(٣٨) ص ١٨٥.

من الفتية فى مدة لبثهم ؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك،وذلك قوله : (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا بأن لبثهم قد تطاول .

والذى نراه أن المقصود بالحزبين اليهود والنصارى ؛ لأن الفتية كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية من اليهود ، والدليل على هذا ، فضلاً عما سبق أن سقناه من أدلة ، أن أحبار اليهود اعتنوا بحفظ خبرهم وأمرهم ، وأنهم هم الذين حرضوا قريشاً على توجيه السؤال الخاص بأصحاب الكهف إلى الرسول ﷺ ، فلو أنهم كانوا يجهلون خبرهم ما سألوا عنهم ، فلا شك فى أنهم كانوا يعلمون شيئاً عنهم ، فالثابت أن يهود المدينة أصلهم من سكان فلسطين الذين هاجروا منها إلى الجزيرة العربية ، فجاءوا محملين بتراثهم وتاريخهم ، وكأن الله أراد أن يفضحهم عندما نصحوا المشركين بتوجيه هذا السؤال إلى الرسول ﷺ ، فكشفوا بذلك عن علمهم بالحادثة ، وأنها كانت تخص بعضاً منهم ؛ لأن المعروف أن اليهود ـ لشدة أنانيتهم وغرورهم الناشىء عن اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار ـ لا يهتمون بتاريخ الشعوب والجماعات الأخرى إلا بقدر ما يكون له من علاقة بتاريخهم ، وكذلك النصارى الذين استعار أحد أساقفتهم القصة ، ودسها فى تراث الكنيسة على أنها وقعت فى (أفسوس) وأن أبطالها كانوا من أتباع المسيح ، فإن هذا الاهتمام من جانبهم يدل على أن أحداث القصة وقعت فى فترة من التاريخ ، كانت المسيحية فيها لا تزال مختلطة باليهودية .

أما بشأن الاختلاف الذى وقع بين الفتية حول مدة لبثهم فى الكهف ، فلا يصح أن يؤدى إلى النظر إليهم كحزبين أو كفريقين مختلفين ، ولعل هذا ما جعل الزمخشرى ، فى رأى آخر له يقول : (أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم) أى من غير أصحاب الكهف ، وهو ما قاله النسفى أيضاً ، وكان القرطبى قد سبق إلى القول بأن الآراء التى قيلت فى هذا الصدد لا ترتبط بألفاظ الآية .

من هم قوم أصحاب الكهف؟

أما قوله تعالى :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ

مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (٣٩).

فقد فسرها معظم المفسرين على أن الفتية بعد أن قوى الله تعالى قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان، والنعيم والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام (إذ قاموا) بين يدى الجبار دقيانوس من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم، إلى آخر ما جاء فى (الكشاف) على لسان الزمخشرى، ومثل ذلك على لسان ابن كثير وغيره، وهو كلام يستند إلى قصة النيام السبعة المسيحية، وقد أثبتنا عدم صحته، والحقيقة أن الفتية لم يرفضوا عبادة الصنم كما تقول القصة المسيحية، ولكنهم رفضوا عبادة (يهوا) إله اليهود الذين وصفوه بما أملته عليهم أهواؤهم، وكان المؤمنون بعيسى بشراً ونبيًّا من اليهود، قد تعرضوا فى الفترة التى وقعت فيها حادثة الكهف لاضطهاد شديد من جانب اليهود، الذين أصروا على البقاء على عبادتهم لـ(يهوا) وأنكروا نبوة المسيح؛ لأنه لم يأت بالصورة التى كانوا قد رسموها له فى خيالهم كنبى من طراز موسى وداود وسليمان، محارباً يقودهم إلى النصر على أعدائهم.

فلما رفضت شيعة (الأبيونيين) التى ينتمى إليها الفتية عبادة (يهوا) طردوهم وطاردوهم إلى ما وراء نهر الأردن، وهكذا قال الفتية: (ربنا ربُّ السموات والأرض) أى رب الجميع، وليس كما يريد اليهود، ربهم وحدهم من دون الأمميين.

أما عن قومهم، أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية على مذهب (بولس) فقاموا بتأليه عيسى وأمه، فإنهم يقولون عنهم:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٤٠).

وهذا خلاف ما ذهب إليه المفسرون من أن المقصود بالآلهة: الأوثان التى كان يعبدها قوم الفتية، وواضح تأثرهم بالقصة المسيحية التى تقول: إن الفتية كانوا

(٣٩) سورة الكهف، الآية ١٤.

(٤٠) سورة الكهف، الآية ١٥.

من الروم ويقيمون فى أفسوس. فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك، فقد كانوا يهودا اعتنقوا المسيحية الصحيحة.

ومما يسترعى الانتباه أن المصدر الوحيد الذى أخذ بهذه النظرية هو تفسير المنتخب الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر، وقد وضعته لجنة من علماء المسلمين، فقد جاء فى حواشى التفسير أنه من المحتمل أن يكون هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف، واعتصموا به من اليهود، إلا أن الملاحظ أن واضعى التفسير لم يشاءوا أن يقطعوا برأى فى الأمر، فلجئوا إلى الاحتمال بقولهم (إنه من المحتمل) ثم ذكروا فترتين تاريخيتين تعرض فيهما اليهود للاضطهاد: الأولى فى عهد الملك السلوقى (انتيوخوس)(٤١) الرابع الملقب بنابيفانيس حوالى (١٧٦ ــ ٨٤ ق.م) والثانية فى عهد الإمبراطور الرومانى هارديانوس (١١٧ ــ ١٣٨ ميلادية). ولكن الذى فات اللجنة إدراكه أن الفتية، وإن كانوا يهوداً أصلاً، إلا أنهم أصبحوا نصارى يؤمنون بعيسى عليه السلام نبيًّا رسولاً. غير أن اللجنة، وقد ذكرت فترتين تاريخيتين قالت: إنه يحتمل أن تكون حادثة الكهف قد وقعت فى إحداهما، الأولى سابقة على الميلاد، والثانية بعد الميلاد، فإنها لم تأخذ فى حسابها أن يكون هؤلاء اليهود قد اعتنقوا دين المسيح. غير أن إعمال النظر فيما ورد فى الآيات، وفيما كان عليه اليهود فى هذه الفترة أو تلك، كان من شأنه أن يكشف عن أن اليهود كان مغضوباً عليهم من الله تعالى، وهو ما عبر عنه المسيح عليه السلام فى خطبه وعظاته، إذ لعنهم وتوعدهم بالعذاب.

ومما لا شك فيه أن المرحوم محمد تيسير ظبيان لم يفطن إلى هذا الأمر، فبادر إلى تخطئة اللجنة استناداً إلى دليل واه: هو أن اليهود أنفسهم لم يشيروا إلى قصة أصحاب الكهف فى كتبهم، وفاته أن الذين حرضوا مشركى قريش على سؤال الرسول ﷺ عن هذه القصة هم يهود المدينة، الذين كانوا ـ ولاشك ـ يعلمون عنها

---

(٤١) كان (انتيخوس) الثالث هذا، أو انطيخوس كما جاء فى بعض المصادر، على حد ما روته الإصحاحات اليهودية من سفر المكابيين الأول ومن سفر المكابيين الثانى، قد أوقع بهم المذابح الهائلة، ونهب أموالهم وهدم بيوتهم، وأقام المذابح الوثنية فى مختلف الأنحاء، إلا أنه لم يكرههم على عبادة آلهة من بينها الله تعالى، الذى استثناه الفتية عندما قالوا: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) فالله لم يكن قط من بين ما يعبده اليونان من أوثان.

الكثير الذى قصدوا أن يدحضوا به ما سوف يقوله الرسول ﷺ لو أنه كان غير صحيح، فلما أفحمهم بخبر السماء:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (٤٢).

لاذوا بالصمت، ولو أن المرحوم محمد تيسير ظبيان تنبه إلى هذه الواقعة لأدرك على الفور أن اليهود ـ وإن كانوا على علم بالقصة علماً يتناقلونه شفاهة ـ فإنهم لم يضمنوه كتبهم لكراهيتهم لأصحاب الكهف الذين كانوا من شيعة يهودية آمنت بالمسيح البشر الرسول، الذى أنكروه وسعوا فى هلاكه.

وقول الفتية (هؤلاء قومنا) يفهم منه أنه لم يكن هناك ملك وثنى يريد إكراههم على عبادته، أو السجود لتمثاله، وإنما يدل على أن هناك قوم الفتية الذين اتخذوا آلهة مع الله، وهو أمر يصطدم بعقيدة الفتية، التى تقوم على عبادة الله الواحد لا يشركون به أحداً، فليس هناك إذن مطاردة من ملك، أو ملاحقة من أعوانه، وجنوده لهؤلاء الفتية، الذين كانوا يقيمون مع قومهم فى المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن، والتى كانت تخضع لحكم ملك الأنباط، وهو ـ وإن كان ملكاً وثنياً ـ لم يكن يفرض على من يقيمون فى مملكته أن يعيدوا آلهته، والدليل على ذلك أن اليهود، من بقى منهم على يهوديته، ومن آمن بالمسيح بشراً رسولاً، ثم بعد ذلك من آمن به ابنا لله وإلهاً ـ كانوا جميعاً يعيشون فى دمشق التى كانت خاضعة لحكم الأنباط، وفى غيرها من المدن الواقعة شرقى نهر الأردن دون أن يقع عليهم أى ضغط، أو يوجه إليهم أى عمل من شأنه إكراههم على تغيير عقيدتهم ويروى فى هذا الصدد أن (بولس) أول من وضع عقيدة التثليث هاله ـ وقت أن كان لا يزال يهودياً ـ أن يلقى اليهود المسيحيون الحماية فى دمشق تحت حكم الأنباط، فطلب الإذن من رؤساء اليهود فى أورشليم بالسفر إلى دمشق للتنكيل بهم وإعادتهم إلى أورشليم لمحاكمتهم، ثم حدث له ما حدث مما جاء فى الروايات المختلفة من أنه سمع صوت يسوع (الرب) وهو فى طريقه إلى دمشق يعاتبه لموقفه منه، واضطهاده له، ويدعوه إلى الإيمان به، فانقلب على أثر ذلك مسيحياً، ثم سافر فيما بعد إلى دمشق ليروج لمذهبه الجديد فى التثليث، كل هذا دون اعتراض

---

(٤٢) سورة الكهف، الآية ١٣

من أحد، فلو صح ما قيل من أنه كان هناك ملك يُكره الناس على عبادته لكان أولى بهذا الملك أن يُكره (بولس) على عبادته.

كذلك فإن الفتية قالوا: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) وهو ما فسره الزمخشرى على أن (إلا الله) يجوز أن يكون استثناء متصلاً على ما روى أنهم -أى قوم الفتية- كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه آخرين، فإذا صح هذا، وهو بلا شك صحيح، فإن القول بأن الفتية كانوا من الروم الذين يعبدون الأصنام يتعارض مع هذا المعنى؛ لأن الرومان لم يكونوا يعبدون الله مع آلهتهم الوثنية بل إن تاريخهم الدينى الطويل لم يرد فيه ذكر لله سبحانه وتعالى، على كثرة ما عبدوا من آلهة، بعضها للحرب، وبعضها للحب، والبعض الثالث للنسل وهكذا. ولكن الذين عبدوا الله مع آلهة أخرى هم المسيحيون الذين قالوا: إن عيسى ابن الله وألهوه، وألهوا أمه، واتخذوا عقيدة التثليث جاعلين من الله ثالث ثلاثة، ومن ثم فإن قول الفتية: (وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) يقصدون به قصر العبادة على الله دون المسيح ومريم عليهما السلام.

وإنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقاً أن يفوت كل المفسرين ملاحظة الاختلاف الواضح بين قول الفتية:

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾

ثم قولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾

فإنه لشدة تسلط القصة النصرانية على فكر المفسرين جعلتهم يذكرون فى تفاسيرهم كيف فر الفتية من الملك الوثنى، وكيف وكيف دون أن يبينوا لنا لماذا قال الفتية: (لن ندعوَ من دونه إلهاً) ومن هو هذا الإله الذى طولبوا بعبادته، ثم قولهم: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) ودعوتهم بعضهم بعضاً إلى اعتزال

قومهم وما يعبدون إلا الله، مما يعنى أن الله تعالى كان من بين الآلهة التى يعبدها قوم الفتية، فلو صح ما قاله الفتية من أن قومهم يعبدون آلهة مع الله، فإن ذلك يكون متعارضاً مع ما قالوه من أنهم دعوا إلى عبادة إله غير الله، وأنهم رفضوا ذلك، فإذا قيل إنه يصح أن تكون هذه الدعوة إليهم لعبادة إله غير الله، مقصود بها إله من بين الآلهة المتعددة التى يعبدها قومهم، فعندئذ يكون لنا أن نتساءل: ولماذا إله بالذات دون بقية الآلهة؟ ويأتى الرد: بأن الإمبراطور ديكيوس هو الإله المقصود، وأنه هو نفسه دعاهم إلى عبادته والتضحية له، فنقول: إن هذا إذا صح وأيدته الرواية المسيحية فإن قول الفتية: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) يتعارض معه، ذلك لأن الرومان لم يكونوا يجعلون الله من بين الآلهة الكثيرة التى كانوا يعبدونها، وفى كل ما عرف من أسماء آلهة الإغريق والرومان لم يقل أحد إن من بينها إله هو الله.

كذلك فإنه ـ وإن جاز القول بأن «ديكيوس» الذى قيل إنهم أووا إلى الكهف هرباً منه دعاهم إلى عبادته، أو تقديم القرابين لتمثاله ـ فإن ذلك لا يعنى أنه جعل من نفسه إلهاً يعبد من دون آلهة الرومان، صحيح أن بعض الأباطرة الرومان ألّهوا أنفسهم، ولكنهم لم يجرءوا على أن يجعلوا الناس تعبدهم من دون الآلهة الأخرى.

ومن المفسرين الذين قالوا: إن الفتية استثنوا الله مما يعبده قومهم من آلهة، الأستاذ محمد فريد وجدى فى تفسيره المسمى «المصحف المفسر» فهو يقول: «وقال قائل منهم إذ تجنبتموهم وما يعبدون من الآلهة ما عدا الله» وهذا يدل على أن الله سبحانه كان من بين ما يعبده القوم كما ذكرنا.

كذلك يلاحظ على ما قاله الفتية: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾

أنهم قالوا: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

ولم يقولوا: «فأووا إلى كهف» كما قال ابن نوح عليه السلام:

﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي﴾

فهو قد يقصد أى جبل بدون تحديد، اعتقاداً منه أن ارتفاع الجبل، أى جبل، كفيل بعدم وصول الماء إليه وغرقه. أما الفتية فقد قالوا: (فأووا إلى الكهف) ويقصدون بذلك كهفاً معيناً عرفوه وعاينوه، وأدركوا ملاءمته لهم وصلاحيته لإيوائهم، مما يدل على أنهم كانوا قد اعتادوا التردد عليه وقضاء بعض الوقت فيه، وهذه عادة الأبيونيين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المنطقة التى وجد بها الكهف، بعكس الروم الذين لم تكن لديهم مثل هذه العادة، فهم أهل الحضارة يحيون فى المدن العامرة، ولا يطيقون حياة الصحراء والعيش فى الكهوف.

كذلك فإن ما قصدته القصة المسيحية من أن النيام السبعة فروا من الملك (ديكيوس) أو (ديسيوس) واختبئوا فى الكهف، فلحق بهم جنوده وأغلقوا بابه عليهم، يفهم منه أن هؤلاء الفتية لم يكونوا يعرفون الكهف الذى اختبئوا فيه، ولم يسبق لهم التردد عليه، فلو أن قصة النيام السبعة هى قصة أصحاب الكهف حقاً لكان من الأصوب أن يقول القرآن على لسانهم: (فأووا إلى كهف) وليس إلى الكهف، باعتبار أن أى كهف يصلح للاختباء فيه عن أعين الملك وجنوده.

ليس ذلك وحسب، بل إن اختيار الفتية للكهف لاعتزال قومهم فيه، لم يكن أمرًا أملته الصدفة، ولم يكن تصرفاً عشوائيًا، وإنما كان بتوجيه من الله سبحانه وتعالى الذى هداهم إليه من أول الأمر، حتى إذا أووا إليه يوم يتخذون قرارهم باعتزال قومهم، كان ملائماً لهم وللظروف والأحوال التى ستمر بهم أثناء نومهم الطويل.

وأما قولـه تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ (٤٣).

(٤٣) سورة الكهف، الآية ١٧.

فقد سبق أن بينا معناها حين تكلمنا عن موقع الكهف.

وفى الآية التالية دليل جديد على أن القصة التى رواها الأسقف (جيمس الساروجى) ليست صحيحة على الإطلاق، حيث ذكر فيها أن الملك «ديكيوس» أمربإغلاق الكهف على الفتية بالحجارة الضخمة حين فروا إليه، ولست أدرى كيف غفل المفسرون المسلمون عن هذه الآية وغيرها، وهم يأخذون بلا تردد ودن إعمال نظر من القصة المسيحية المختلقة، مما جعل تفاسيرهم تأتى متناقضة مضطربة، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (٤٤).

ومعنى هذا أن الكهف كان مفتوحاً والكلب راقد على بابه وقد بسط ذراعيه.

ومعنى قوله: (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) أن أعينهم لم تنطبق شأن أعين النائمين، وإنما ظلت مفتوحة لئلا يسرع إليها البلى،فإنها إذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها (٤٥) فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً (٤٦)، كذلك فإنه سبحانه وتعالى كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، والواقع أن هذا الوصف يثير قضية على جانب كبير من الأهمية ألا وهى: إذا كان باب الكهف مفتوحاً والكلب راقداً أمامه وقد بسط ذراعيه، والفتية بداخله مفتوحى الأعين، يتلقبون ذات اليمين وذات الشمال، بحيث لو اطلع عليهم أحد لولى منهم فراراً وقد امتلأ رعباً، فهل وضعهم بهذه الصورة كان لغاية معينة أو أنه جاء مصادفة؟

الذى نعلمه علم اليقين أن القرآن الكريم الذى تستخدم فيه لا الكلمات فحسب، بل والحروف أيضاً للتعبير الدقيق المحكم، بحيث لا نجد كلمة زائدة، ولا نصادف كلمة ناقصة، أو حتى كلمة لا تعطى المعنى المطلوب بصورة شاملة دقيقة، كذلك فإنه لو لم يكن من إعطاء هذه الصورة لوجودهم داخل الكهف

---

(٤٤) سورة الكهف، الآية ١٨.

(٤٥) ابن كثير، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٤٦) الكشاف، المرجع السابق، ص ٤٧٥.

فائدة ومغزى، ما أوردها الله تعالى، والذى جعلنا نهتم بهذا الموضوع هو اتصاله الواضح وارتباطه الوثيق بموضوع الرقيم الذى قيل إنه اللوح الذى نُقشت عليه أسماؤهم أو الكتاب الذى سجلت فيه هذه الأسماء، فالذى نراه هو أنه لم يكن هناك حاجة إلى هذا الكتاب أو ذلك اللوح، لماذا؟ لأن الفتية كانوا- بوجودهم فى الكهف راقدين مفتوحى الأعين، يتقلبون وكلبهم على بابه باسط ذراعيه- دليلاً كافياً لا يفوقه دليل آخر على حدوث المعجزة، فالمترددون على المنطقة التى يوجد فيها الكهف وهم من شيعة الفتية - يعرفونهم ويشاهدونهم يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام وعقداً بعد عقد، ويروون قصتهم لأبنائهم وأحفادهم، وهؤلاء بدورهم يعاينونهم كلما ساقتهم أقدامهم إلى المنطقة التى يوجد فيها الكهف، ولكنهم لا يجرءون على الاقتراب منهم أو دخول الكهف لوجود الكلب على بابه، وإلا فما هو الغرض من رقود الكلب على باب الكهف، وقد بسط ذراعيه؟ أهو لمجرد الشكل فقط، أم لغرض آخر أهم؟

كذلك فإن الله كان من بين مقاصده من هذه المعجزة أن يعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، وهذا لا يمكن أن يحدث، أى إحصاء مدة لبث الفتية فى الكهف إلا إذا كانت واقعة اعتزالهم لقومهم واللجوء إلى الكهف معروفة، فالإحصاء لا يمكن أن يقع على مجهول، ولا يمكن أن يختبر الله خلقه بمجهول لا علم لهم به، ولا يمكنهم أن يعاينوه بحاسة من حواسهم، وعليه فإن الكهف كان معلوماً لقومهم الذين كانوا يمرون عليه ويشاهدونهم فى رقادهم، ولكنهم لا يجرءون على الاقتراب منهم، بل إنهم ما يكادون ينظرون إليهم حتى يولون منهم فراراً، وقد ملأهم الرعب، ولذلك فإن الله تعالى حين وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بقوله:

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (٤٧).

ولو أراد الله قومهم لقال: (لو اطلعوا عليهم لولوا منهم فراراً ولملئوا منهم رعباً) وهذا يعنى أن قومهم كانوا يطلعون عليهم، ولكنهم لا يقتربون منهم لما كان يصيبهم من رعب يجعلهم يفرون منهم، وهكذا ظلوا يشاهدونهم جيلاً بعد جيل، وكل جيل

(٤٧) سورة الكهف، الآية ١٨.

يروى للذى يليه قصتهم ، لا يدرى أحد إذا كانوا لا يزالون أحياء أم أنهم ميتون.

ولعل تخصيص الرسول ﷺ بالخطاب فى قوله تعالى: (لو اطلعت عليهم) يدل على مدى ما كان يسببه وجودهم بهذا الوضع من رعب يدفع إلى الفرار، ذلك أنه إذا كان الرسول المبعوث من الله والذى يتميز بقوة العزيمة والشجاعة ورباطة الجأش، سيولى منهم فراراً ويمتلىء رعباً إذا اطلع عليهم فما بالنا بغيره من الناس؟ لا شك أن رعبهم سيكون أعظم، وفرارهم سيكون أسرع.

ومما يرجح وجهة نظرنا بشأن أن أهل الكهف كانوا محل معاينة ومشاهدة من الناس، ولم يكونوا مجهولين بالنسبة لهم أثناء المدة التى لبثوها فى الكهف - هو العلة التى من أجلها ضرب الله على آذانهم فى هذا المكان بالذات دون غيره، والذى يبدو كما لو كان قد أعد إعداداً خاصاً ليكون بالحالة التى هو عليها، سواء من حيث تصميمه، ففيه فجوة تتسع لهم أو تزيد، أو من حيث موقعه بالنسبة للشمس وحركتها فى الشروق والغروب وما ترسله من أشعة وضوء وعلاقة ذلك بتهوية المكان، فلو أن الغرض كان اختباءهم أو اختفاءهم عن قومهم حتى لا يصلوا إليهم فإنه لم تكن هناك حاجة إلى كهف بمثل هذه المواصفات، فيكفى أى مكان طالما أنه يصلح للاختفاء، حتى ولو ترتب عليه موتهم تماماً وفناء أجسادهم، فإن ذلك لن يعجز الله عن بعثهم بهيئاتهم التى كانوا عليها يوم موتهم، أو بغيرها. وهو ما سوف يفعله الله بكل خلقه يوم تقوم الساعة، فما أهمية أن يأوى الفتية إلى هذا الكهف أو إلى غيره؟ وما الفرق بين أن يحتفظوا بهيئاتهم وبمظهرهم، كما لو كانوا أيقاظاً، أو ألا يحتفظوا بها، ويظهروا بمظهر الرقود رقدة الموت التى لا صحوة بعدها إلا يوم البعث؟

كذلك ما هى الضرورة التى تدعو إلى جعل من يطلع عليهم يولى منهم فراراً، ويمتلىء رعباً؟ ولماذا يضفى الله عليهم هذا المظهر الذى يسبب الرعب لمن ينظر إليهم، طالما أنهم شأنهم شأن من لا يطلع عليهم أحد من الموتى أو المختبئين، فنحن نتردد على الجبانات والقبور، وقد نصادف مقابر مهدمة ونرى رفات من دفنوا بها فلا نفزع ولا نولى الأدبار، كما أننا نشيع الموتى ونحضر دفنهم حتى يتم مواراتهم التراب، فلا نرتعب ولا نولى الأدبار، وإن كنا نتأثر لنهاية الإنسان ونتعظ بما

حدث له، ونعود إلى صوابنا، فندرك بوضوح أكثر أن الدنيا فانية، وأن كل نفس ذائقة الموت.

فليس هناك ما يدعو إذاً إلى نومهم فى كهف بهذه المواصفات، إلا إذا كانت هناك حاجة حقيقية إلى توفر هذه المواصفات فى الكهف بهذه الصورة، هذه الحاجة هى أن يكون الفتية ظاهرين فيه بداخل الفجوة، ينامون فى ظروف ملائمة، بحيث لا تبلى أجسامهم أو يصيبها التلف، فهناك الشمس التى تفيدهم بدفئها ولا تصيبهم بأشعتها، والهواء الذى يدخل إليهم من باب الكهف بالقدر الذى يحتاجون إليه فى التنفس أثناء نومهم، وتجديد جو المكان، فالكهف فى هذه الحالة يشبه واجهة عرض مكيفة ومعدة لتلائم المعروض فيها، وتتيح الفرصة كاملة أمام المشاهدين ليطلعوا عليه.

بقى حماية ما فى الواجهة من عبث العابثين، ونحن نشاهد فى أيامنا هذه وسائل كثيرة لحماية ما يعرضه التجار فى واجهات محالهم، خاصة إذا كان ما يعرضونه ثميناً ومبتكراً، يريدون أن يجتذبوا به أنظار الناس، وفى نفس الوقت يحافظون عليه من أن تمتد إليه أيديهم بالإتلاف أو السرقة، فترى بعضهم يضع قضباناً من الحديد أمام الزجاج، بحيث تحول دون وصول الأيدى العابثة إليه لكسره والاستيلاء على ما وراءه، وترى البعض الآخر يضعون نوعاً من الزجاج الذى لا يُكْسَر، فى حين يضع البعض الثالث عدسات تليفزيونية تراقب الزبائن وتسجل حركاتهم، وقد يضيفون إليها أجهزة إنذار تنطلق إذا اعترض عارض، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً طريق سير الأشعة، فتدوى صفاراتها تنذر بما حدث، إلى غير ذلك من الوسائل، وقد علمنا الله تعالى، وهو الذى علم الإنسان ما لم يعلم، أسلوباً من أساليب الحماية فى مثل هذه الأحوال، وهو التخويف الذى يدفع الإنسان إلى الهرب، بأن جعل مظهر الفتية فى الكهف مخوفاً مفزعاً يصيب من يراهم بالرعب فيولى الأدبار.

وقد قال البعض: إن السبب فى ذلك هو نمو شعورهم وأظافرهم، ولكنا نستبعد أن يكون هذا هو السبب؛ لأن شعورهم لو كانت قد نمت كما يقولون للاحظ الفتية ذلك عندما استيقظوا، ولأدركوا على الفور طول المدة التى لبثوها فى الكهف، ولكن الملاحظ أن بعضهم قال: (لبثنا يوماً أو بعض يوم) مما يتنافى مع

ما قاله الزمخشرى من أن شعورهم وأظافرهم بلغت حداً من الطول أضفى عليهم مظهراً يثير الرعب، ويبعث على الخوف، ونعتقد أن الخوف لم يكن مبعثه مظهر الفتية، ووضع كلبهم على باب الكهف، وإنما كان الخوف منهم مبعثه شعور داخلى يبعثه الله فى قلب من يراهم حماية لهم، وإبقاء عليهم، وهو شعور كان يزيد فى عمقه ويضاعف من تأثيره طبيعة المكان الذى يوجد فيه الكهف وحال الفتية، وكلبهم، ثم طبيعة الناس الذين كانوا يقيمون فى المنطقة التى يوجد فيها الكهف، وهم من الزهاد المنقطعين للعبادة.

والمهم فى الأمر أن الفتية كانوا محل مشاهدة وموضع معاينة لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وذلك على خلاف الرجل الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه هو وحماره، وأبقى على طعامه وشرابه كما هو لم ينله عطب أو يُصِبْهُ فساد، فإن أحداً لم يشاهده لا وهو يموت ولا وهو يبعث، وإنما هو نفسه الذى شاهد جسمه وهو يبعث من جديد؛ وذلك لأنه كان قد شك فى البعث، برغم إيمانه بالله فقال حين ر على قرية قد دمرت.

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (٤٨).

فأراد الله أن يثبت له حقيقة البعث ففعل به ما فعل، ولم يكن المقصود إثبات هذه الحقيقة للغير، بغض النظر عما رددته أساطير اليهود عن الرجل وكيف عاد إلى أهله إلى آخر ما قيل فى ذلك، غير أن الأمر المتيقن مما ذكره القرآن الكريم عنه أنه كان هو نفسه المقصود بالمعجزة دون غيره.

أما أهل الكهف فإنهم على خلاف هذا الرجل، لم يشكوا فى البعث ولم ينكروا الحساب، بل إن قومهم الذين اعتزلوهم لم يكونوا من المهتمين بهذا الأمر، ولم يكن هو موضع الخلاف بينهم وبينهم، وإن كان موضع الخلاف هو عبادة هؤلاء القوم آلهة أخرى مع الله، وهو ما رفضه الفتية، وأبوا أن يطيعوهم فيه، فاعتزلوهم. وهكذا يتبين لنا أن نوم الفتية فى الكهف كان لحكمة، وأن بعثهم فيه كان لحكمة أخرى كانت مرهونة بوقتها، وهو الوقت الذى بُعث فيه الفتية

---

(٤٨) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

حيث كان الناس قد أضافوا إلى الشرك بالله بعبادتهم للثالوث، إنكار البعث أو الشك فيه، فبعث الله الفتية الذين كانوا نائمين كل هذه المدة غير المألوفة، والمخالفة لما عرفه الناس عن الأعمار، وما تمتد إليه الحياة، وما تحتاج إليه من طعام وشراب ورعاية للجسد وعناية به، فكان لزاماً أن يعاينوا بأمهات أعينهم حالة رقاد الفتية طيلة ثلاثمائة سنة، جيلاً بعد جيل، وهم يتساءلون: أهم أيقاظ أم رقود؟ أحياء أم موتى؟ ومع ذلك لا يجرءون على الاقتراب منهم.

وليس من شك فى أن عدد الناس الذين كانوا يشاهدون الفتية وهم فى داخل الكهف، وقد استسلموا لسبات عميق كان قليلاً جدًّا، حيث إن المنطقة التى يوجد فيها الكهف كانت ولا تزال منطقة جبلية وعرة وجرداء، لا يتردد عليها أحد، اللهم إلا من يذهب إليها عامداً من الزهاد وهم غالباً من شيعة الفتية، أو من قد يلوذ بها، أى بالمنطقة من الأفراد الهاربين لأى سبب كان، سواء أكان ارتكاب جريمة أم كان الفرار من اضطهاد دينى، وأمثال هؤلاء وأولئك يكتفون بإلقاء نظرة على النائمين دون أن يساورهم أى تفكير فى الاقتراب منهم، أو الدخول عليهم، نظراً لوجود الكلب الباسط ذراعيه على باب الكهف، وكأنه مستيقظ متحفز، وهو ما يدل عليه بسطه لذراعيه.

كذلك فإن وجود عدد من الأفراد بداخل أحد الكهوف، وقد ناموا لا يسترعى انتباه أحد ممن يقيمون أو يترددون على هذه المناطق الجبلية المقفرة، وحتى إذا تكرر مرور فرد أو أكثر على نفس المكان، ورآهم على نفس الحال التى سبق أن رآهم عليها، فسوف يعتقد أنهم استيقظوا ثم عادوا إلى النوم ثانية، اللهم إلا إذا راقبهم لمدة ليعرف ما إذا كانوا استيقظوا أم لا، وهذا ما لا يتصور حدوثه فى مثل هذه المنطقة المهجورة، حيث إن وجود سبعة أفراد معاً فى مكان لا يتردد عليه الناس إلا فرادى للأسباب التى سبق ذكرها يثير الشعور بالخوف منهم لدى أى شخص يراهم، لاحتمال أن يكونوا عصابة قد تعتدى عليه إذا رأوه، أما إذا وجد لديه سبب لإيقاظهم، فإنه سوف يخاف من كلبهم، وإذا تجرأ وتجاوز الكلب فإن منظرهم الذى يبعث على الخوف سوف يجعله يولى الأدباء.

ولاشك أنه بمضىّ الوقت وتتابُع السنين ازدادت المنطقة المحيطة بالكهف وحشة، بعد أن أقفرت من سكانها، وتقطعت السبل بالمترددين عليها، وتغير مسار

الطريق الممتدة بين مناطق التجمعات السكانية تماماً، كما حدث بالنسبة للمناطق التى توجد بها الآثار القديمة، والتى كانت فى الماضى مناطق عامرة.

ولقد شاهدت فى مدينة الخارجة بالوادى الجديد قبراً يرجع إلى فترة الحكم الإغريقى لمصر، توجد به مومياوات لأناس ماتوا فى تلك الأيام، فلم يزد الوقت الذى نظرت فيه إلى تلك المومياوات على بضع دقائق انصرفت بعدها دون أن أفكر فيما إذا كان أصحاب هذه المومياوات أمواتاً أم أحياء، وربما لو أنه خطرت لى هذه الفكرة لنزلت إلى حيث توجد المومياوات، وتفحصتها لأتأكد مما إذا كانوا أحياء أم لا. فقد استقر فى وعيى منذ أن سمعت وقرأت عن المومياوات أنها لأناس ماتوا منذ زمن بعيد، وهكذا الحال بالنسبة للفتية، فإن من يراهم وقد ناموا فى حين أن كلبهم باسط ذراعيه على باب الكهف، لن يفكر فى أن يتحقق من أنهم ليسوا خلاف ذلك، وأنهم لا ينهضون من النوم كما هى عادة الناس.

ولم يكن اشتمال الرد الذى نزل به الوحى على سؤال اليهود، من خلال المشركين العرب، عن الفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول، على بيانات دقيقة مثل عدد الفتية واختلاف الأقوال بشأنهم، أكانوا ثلاثة أم خمسة أم سبعة، ثم تحديد المدة التى لبثوها فى الكهف بأنها ثلاثمائة سنة وتسعة ـ أمراً زائداً ليس من شأن وروده على هذا الوجه إلا نشوب الخلاف حول ترجيح أى الأرقام هو الصحيح، أو احتدام الجدل حول ما إذا كان ذكر المدة التى لبثوها فى الكهف قد جاء على سبيل الخبر أم التقرير، فهذا وذاك هو مما يجب أن ننزه القرآن عنه، وإنما وردت هذه المعلومات لحكمة ما كان يجب أن تخفى علينا إذا كنا قد تعلمنا ما أراد الله تعالى أن نتعلمه، من أحوال اليهود وأسلوب تفكيرهم وطباعهم الشاذة، فهم منذ القدم مولعون بالجدل ميالون إلى الخلاف، معاندون، مكابرون، مراوغون، وقد وصف لنا القرآن موقفهم من أنبيائهم، فقد كانوا يجادلونهم فيما لا يستحق الجدال ويرهقونهم بأسئلتهم ويعارضونهم حتى فيما لهم فيه مصلحة، ويفعلون عكس ما يطلبونه منهم، فقد أخبرهم موسى عليه السلام أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فاتهموه بأنه يهزأ بهم، فلما نفى ذلك لم يستجيبوا للطلب فيذبحوا أى بقرة، طالما أن الله تعالى كان يريد أن ييسر عليهم الأمر، وإنما جادلوه كعادتهم، فسألوه أن يدعو لهم ربه يبين لهم ما هى، فلما أخبرهم عادوا يطلبون منه

أن يدعو لهم ربه يبين لهم ما لونها، فلما أخبرهم عادوا فطلبوا للمرة الثالثة أن يدعو ربه يبين لهم ما هى؛ لأن البقر تشابه عليهم!! وهو نوع من المراوغة اشتهروا به وكثير منه ذكره القرآن الكريم، وامتلأ به تاريخهم القديم والحديث.

وقد لاحظنا أنهم بعد أن سمعوا الرد على أسئلتهم التى كان من بينها السؤال الخاص بالفتية الذين أووا إلى الكهف، لم يكذبوا ولم يجادلوا، بل لزموا الصمت على خلاف ما هو معروف عنهم، مما يدل على أن الإجابة أفحمتهم إلى الحد الذى جعلهم يعجزون عن ممارسة عادتهم فى الجدل واللجاج، فما الذى أفحمهم فى إجابة الوحى عن سؤالهم؟

إن الذى أفحمهم إلى الحد الذى جعلهم يلوذون بالصمت هو البيانات الدقيقة التى اشتمل عليها الرد، والتى لم يكن هناك من يعلمها غيرهم، فمن كان يعرف سر الأرقام الفردية: ٣، ٥، ٧ أومن كان يعرف سر المدة التى لبثها الفتية فى الكهف، وأمر الخلاف فى التقويم الذى كانت تتبعه الطائفة التى ينتمى إليها الفتية؟ ومن كان يعرف أمر اختلاف الإله الواحد الذى يعبده الفتية عن الإله الواحد الذى يعبده اليهود (يهوه)، والآلهة المتعددة التى من بينها الله تعالى التى يعبدها النصارى، الذين كانوا يهوداً آمنوا بالمسيح بشراً رسولاً، ثم انحرفوا فآمنوا بما ادعاه (بولس) من أن المسيح إله وابن إله، فعبدوه وأمه مع الله؟ إنها جميعاً أسرار لم يعرفها غير اليهود، وكذلك النصارى الذين آمنوا بالمسيح إلهاً وابن إله.

عدد أصحاب الكهف:

أما قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

---

(٤٩) سورة الكهف، الآية ١٩.

فإنه فضلاً عن دلالته على أن الفتية لم يدركوا أنهم قد قضوا فى الكهف نائمين مدة بلغت الثلاثة القرون أو يزيد، فقد أورد الحوار الذى دار بينهم حيث سأل أحدهم: كم لبثتم؟ فرد عليه جماعة (لا تقل عن ثلاثة) قائلين: لبثنا يوماً أو بعض يوم، فقالت جماعة أخرى: ربكم أعلم بما لبثتم. ويقول الزمخشرى عنهم: «كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أن المدة متطاولة وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله».

فمن الحوار يتبين لنا أنهم كانوا سبعة، فإن قيل: ولماذا لا يكونون أكثر، فالجمع يحتمل أكثر من ثلاثة، وقد يكون الذين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم أربعة أو خمسة، كما قد يكون الذين قالوا: (ربكم أعلم بما لبثتم) مثلهم. فإننا نقول لهم: إنه لو كان ما تقولونه صحيح إلا أنه بعيد عن الاحتمال لأن مقتضى ذلك أن نفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يفترض عدداً يدخل فى صورة الجمع، وبذلك قد يكون الفتية مائة أو أكثر، ولكن الأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون عدد الجماعتين اللتين ردتا على المتسائل «كم لبثتم؟» ستة أفراد، ثلاثة لكل جماعة لا أكثر. ولعل الله تعالى أراد بهذا أن يوحى إلينا بعددهم، فذكر أن واحداً قد تساءل، فردت عليه جماعة، ثم ردت عليه الأخرى، وكان يمكن أن يجعل الحوار شائعاً فى الجماعة فيقول مثلاً: وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، قالوا: كم لبثتم قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم. ولكن الله تعالى قسمهم إلى واحد وجماعتين.

ولما كان الجمع لا يكون إلا بثلاثة فمعنى ذلك أن عددهم كان سبعة، ولذلك فإن الجماعة الثانية حين ردت على الجماعة الأولى قالت لها: ربكم أعلم بما لبثتم، فلو كان القائل جميعهم لقالوا: ربنا أعلم بما لبثنا، وهذا ما قاله الجلالين إلا أنه يعيبه أنه افترض أن الستة ردوا أولاً على السائل: (قال قائل منهم كم لبثتم) فقالوا لبثنا يوم أو بعض يوم، ثم عاد بعضهم إلى القول: ربكم أعلم بما لبثتم، وهذا غير متصور إذ يجيب البعض عن سؤال واحد مرتين، واحدة تدل على العلم بالمدة التى لبثوها فى الكهف، والثانية تدل على تعذر العلم.

ولكن الرأى الأقرب إلى المنطق والعقل أن يكون البعض قد أجاب بالإجابة الأولى فى حين أجاب البعض الآخر بالإجابة الثانية، وهو قول لابن عباس رضى

الله عنهما الذى استدل على أن الصحيح أن عددهم سبعة ، لأنه قد قال فى الآية : (قال قائل منهم كم لبثتم) وهذا واحد ، قالوا فى جوابه : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا : (ربكم أعلم بما لبثتم) وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (٥٠) .

أما قوله تعالى : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) فالملاحظ فيه أنه قول واحد منهم ؛ إذ لا يعقل أن يكون قول جماعة ، وإلا لدار بين الجميع حوار مماثل للحوار الذى دار بمناسبة ما طرحه أحدهم من تساؤل عن المدة التى لبثوها ، فى حين أن الأمر بأن يبعثوا أحدهم جاء حاسماً محدداً لا يحتمل الجدل أو النقاش : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) . كذلك جاء واضحاً ومشتملاً على توجيهات وإرشادات واحتياطات تدل على حنكة وتجربة وبعد نظر وخبرة بالناس ، فهو يقول : ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

ويبين لهم عاقبة انكشاف أمرهم فيقول لهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

وعندئذ ، لن تفلحوا إذاً أبداً ، مما يدل على أن قائل هذا هو قائد للجماعة أو رئيس لها ، أو مرشد مسئول عن الجماعة وهو ما يفهم من قوله : (ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً) أى لا يجعل أحدا يشعر بوجود الجماعة التى هو مسئول عنها ، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام قد صدر عن عدد منهم وإلا لقالوا : «ولا يشعرن بنا أحداً» .

وهكذا يتبين أن الستة كانوا يخضعون أو يأتمرون بأمر السابع الذى يبدو من كلامه أنه أبعد نظراً كما قلنا ، ولذلك فإنه يقول لهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

وهذا القول منه يلقى لنا الضوء على ما كان هؤلاء القوم يوقعونه من عقوبة على من يترك دينهم ، وهذه العقوبة هى الرجم إذا لم ينجحوا فى ردهم إلى دينهم القائم

---

(٥٠) تفسير النسفى ، هامش صفحة ١٨٧ .

على الشرك بالله، وهذا يعد مؤشراً آخر، بل برهاناً واضحاً على أن القوم لم يكونوا من الروم؛ لأن الروم لم يكونوا يعرفون الرجم كعقوبة توقع على من يترك دين آبائهم، بل إن من يقرأ تاريخ العقوبة فى الدولة الرومانية يلاحظ أن الرجم لم يكن من بين العقوبات التى كانت تطبق على من يرتكبون الجرائم، سواء أكانت دينية أم غير دينية، وإنما الذين كانوا يطبقون هذه العقوبة، وبالذات على من يترك دينهم، هم اليهود. كما كانوا يطبقونها على مرتكبى بعض الجرائم كالزنى، ولعلنا نذكر واقعة احتكامهم إلى الرسول ﷺ بشأن اليهوديين (رجل وامرأة) اللذين كانا قد زنيا، وكيف أخفوا آية الرجم من التوراة فكشف عنها عبد الله بن سلام الذى ما لبث أن أسلم، أما فيما يتعلق برجمهم من يعتبرونه مجدفاً فى الدين، أو كافراً بدين آبائه فإن (ديورانت)(٥١) يروى فى كتابه أن أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين (النصارى) واسمه اصطفانوس أو (استيفن) استدعى للمثول أمام السنهدرين (المجلس اليهودى الأعلى) واتهم بأنه يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله، فدافع الرجل عن نفسه دفاعاً قوياً لم ينكر فيه إيمانه بالمسيح مما آثار غضب السنهدرين فأمر بأن يجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة.

أما الرومان فإنهم حين بدءوا فى اضطهاد المسيحيين لم يعاقبوهم بالرجم، وإنما عذبوهم وضربوهم حتى الموت، أو قدموهم للحيوانات المفترسة فى المجتلدات الرومانية الشهيرة، أو أحرقوهم حتى الموت، ولم تذكر كتب التاريخ أن أحداً من الذين اعتنقوا المسيحية عوقب بالرجم.

وهذه النقطة بالذات تبين لنا أهمية إلمام المفسرين بالنظم المختلفة، سواء منها العقابى أو الجنائى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى، أو على الأقل الرجوع إلى ما كان منها مطبقاً فى هذه الدولة أو تلك، أو فى هذا المجتمع أو ذاك قبل أن يدلوا برأى، أو يقدموا تفسيراً لإحدى الآيات قد يكون بعيداً عن الصحة أو مخالفاً للحقيقة، وهكذا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم العقوبة، وهى الرجم للدلالة على القوم الذين يطبقونها وهم اليهود الذين كانوا ــ كما هو

---

(٥١) قصة الحضارة، الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ٢٤٤.

وارد فى التوراة ــ يعاقبون بالرجم كل من يخرج على دينهم . وقد ورد فى كتب التاريخ أنهم كادوا يرجون بولس نفسه ، كما أن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ، على مذهب بولس (التثليث) ظلوا يطبقون عقوبة الرجم على من يخرج على هذا المذهب ، باعتباره مهرطقــاً وكافراً ، وذلك دون المسيحيين الآخرين الذين اعتنقوا المسيحية فى أوربا .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الإمبراطور (دوميتيان) الرومانى حكم على ابن عم له بالإعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ، ويقول (ول ديورانت) إن المقصود المسيحية ، ولم يكن تنفيذ العقوبة بالرجم ، بل بقطع الرقبة بالسيف .

كذلك فإن مما يرجح أن يكون عدد الفتية سبعة ، وأن اليهود كانوا يعرفون ذلك ، وأرادوا أن يختبروا صدق نبوة الرسول ﷺ ، أنهم فى تاريخهم الطويل كانوا مولعين بهذا الرقم (٧) يحرصون على أن يكون أى تجمع منهم مكوناً من سبعة ، وذلك على سبيل التفاؤل باليوم السابع ، أو من قبيل التكريم له أو التقديس ، واليوم السابع هذا هو اليوم الذى زعموا أن الله تعالى قد استراح فيه بعد أن انتهى من خلق الكون (٥٢) ، وهو أيضاً يوم راحتهم المقدس أى يوم السبت .

ونجد الرقم (سبعة) يتكرر كثيراً فى التوراة ، ففى الأصحاح السابع الفقرتان ١و٢ : « وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك ؛ لأنى إياك رأيت باراً لدى فى هذا الجيل ، من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى .. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض ؛ لأنى بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وليلة » .

وفى الأصحاح الثامن من سفر التكوين الفقرة رقم أربعة « واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط » . وفى الفقرات من ١٠ إلى ١٣ « فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك ، فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها ، فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض ، فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً » . وفى الفقرة ١٤ « وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين

(٥٢) سفر التكوين ، الإصحاح الثانى ، الفقرتان الأولى والثانية .

من الشهر جفت الآرض » .

كذلك فإن يافث ابن نوح ولد له سبعة أبناء هم (١) جومر (٢) ماجوج (٣) ماداى (٤) ياوان (٥) توبال (٦) ماشك (٧) تيراس.

وفى الأصحاح الواحد والعشرين من سفر التكوين الفقرات ٢٨ إلى ٣٠ « وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها ، فقال أبيمالك لإبراهيم ما هى هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال إنها سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما هناك حلفا كلاهما » .

كذلك أنجب إبراهيم من سراريه سبعة أبناء هم : إسماعيل الذى ولدته هاجر، وستة ولدتهم له قطورة هم : زمران ، ويقشان ، وزمدان ، ومديدان ، ويشباق ، ومشوحا .

وفى الأصحاح ٢٩ من سفر التكوين الفقرتان ١٨ و١٩ : « وأحب يعقوب راحيل فقال أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » . وفى الفقرة رقم ٢٧ : « أكمل أسبع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التى تخدمنى أيضاً سبع سنين أُخَر ففعل يعقوب هكذا فأكمل أسبع هذه . فأعطاه راحيل ابنته زوجة له » .

وفى قصة يوسف عليه السلام رأى فرعون حلماً : « وإذا هو واقف عند النهر، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم ، فأرتعت فى روضة ، ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم ، فوقف بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر، فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة » (٥٣) .

ليس ذلك وحسب ، بل إنهم فيما كانوا يفترضون من قضايا يبحثون لها عن حلول كان يقحمون الرقم (سبعة) . فقد سأل الصدوقيون المسيح عليه السلام قائلين : « يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلاً لأخيه . فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأول ومات ، وإذا لم يكن له

(٥٣) تكوين ، الإصحاح ٤١ ، الفقرات من ١ إلى ٨.

obeikandl.com

نسل ترك أمراته لأخيه. وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة. وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً، ففى القيامة لمَنْ من السبعة تكون زوجة. فإنها كانت للجميع » (٥٤).

وقد سبق أن ذكرنا كيف دعا الحواريون التلاميذ لكى ينتخبوا سبعة رجال منهم، يشهدون لهم وممولين من الروح القدس، وحكمة من أجل أن يقوموا بخدمة الموائد حتى لا يترك الحواريون كلمة الله، وليواظبوا على الصلاة، فاختار التلاميذ من بينهم سبعة أفراد ليقوموا بهذه الخدمة.

وإذا كان اليهود قد اهتموا بالرقم (سبعة) وتعمدوا أن يقحموه إقحاماً فى أسفارهم بمناسبة وبدون مناسبة، فإن المسيحيين بدورهم حاولوا أن يجدوا لأنفسهم هم الآخرون رقماً تكون له دلالة فاهتدى أحد كرادلتهم الأوائل المدعو أوريجن إلى الرقم (٨)، الذى يعبر عن عدد الأشخاص الذين كانوا على ظهر سفينة نوح عليه السلام أثناء الطوفان، وهم: نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث. ويأخذ أوريجن على عاتقه ما كتبه جوستن فى كتابه (الحوار) لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذى فيه ظهر مسيحنا مبعوثاً من بين الموتى. وكتب أيضاً: «إن نوحاً هو الوليد الأول لخلق جديد، إنه صورة المسيح الذى حقق ما يمثله نوح (كذا) ويتابع المقارنة بين نوح من جانب، الذى أنقذه خشب السفينة، والماء الذى يجعلها تطفو، ومن جانب آخر ماء التعميد، (ماء الطوفان الذى منه تولد بشرية جديدة) وخشب الصليب، وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على «الثراء الروحى والعقدى للطوفان» (٥٥).

حكمة بعث الفتية فى الكهف:

أما قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾

فيظهر منه أن معجزة النوم فى الكهف كان لها حكمة أو غاية غير تلك التى كانت

(٥٤) متى، الإصحاح ٢٢، الفقرات من ٢٤ إلى ٢٩.
(٥٥) موريس بوكاى المرجع السابق، صفحة ٥٦.
(٥٦) سورة الكهف، الآية ٢١.

لبعثهم فيه، فبينما نجد أن نومهم كان الهدف أو الغاية منه حمايتهم من قومهم المشركين، الذين عبدوا الثالوث، وإثبات ذلك للفتية أنفسهم عند يقظتهم، إذ يدركون أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعائهم، فنشر عليهم رحمته، وأبقاهم أحياء فى حين مات مضطهدوهم من زمن بعيد- فإن الغاية من بعثهم كانت إثبات حقيقة البعث وقدرة الله عليه لقوم شكوا فيه أو أنكروه، ومرة أخرى نجد المفسرين المسلمين يستعينون بقصة النيام السبعة عند تفسيرهم لهذه الآية، فيقولون: إن تأثير الشرك والوثنية الرومانية والفلسفات اليونانية كان لا يزال قوياً ظاهراً حول الوقت الذى استيقظ فيه الفتية فى كهف أفسوس(٥٧). ومنهم من يقول: إن الملك الصالح ثيوديوسيوس لما رأى الشك فى البعث يتفشى فى الناس دعا الله أن يريهم معجزة أو آية تثبت لهم خطأهم، وتردهم إلى الإيمان بالبعث والنشر(٥٨). وهذا غير صحيح بالمرة؛ لأن الكهف لم يكن بـ(أفسوس) كما أن الفتية لم يكونوا من الروم، ولا كان الملك ثيودوسيوس صالحاً أو مسلماً كما قيل، وإنما كان كما سبق أن ذكرنا مشركاً، جعل عيسى إلهاً وأمه إلهة، واضطهد كل من حاول أن ينفى عنهما صفة الألوهية.

كذلك فإن الآيات ليس فيها ما يدل على وجود ملك صالح، وكل ما فيها أن الله بعث الفتية ليعلم قومهم:

﴿ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾

ولكنه التأثر الواضح بالقصة المسيحية وعدم الإلمام بما كان عليه المدعو ثيودوسيوس وغيره من ملوك الشرك الذين عضدوا الكنسية فيما ذهبت إليه من أن عيسى ابن الله وشريكه فى ملكه.

وقد سبق أن ذكرنا أن الفتية وهم من شيعة الأبيونيين التى تفرعت عن طائفة الآسينيين، التى انتقلت إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث عثر على كهوفهم ومستعمراتهم قريباً من المكان الذى يوجد فيه الكهف، الذى انطبقت عليه الأوصاف الواردة فى القرآن الكريم على مشارف عمان، وكانت هجرتهم أو

---

(٥٧) المودودى، المرجع السابق، صفحة ٢٤.

(٥٨) الزمخشرى، المرجع السابق، صفحة ٤٧٧.

فرارهم إلى هذا المكان عقب تدمير تيطس لأورشليم والهيكل اليهودى، وتشتيته لليهود الذين ألقوا التبعة فيما حدث على عاتق إخوانهم، الذين اعتنقوا المسيحية والذين رحبوا بتدمير الهيكل (هيكل سليمان) باعتباره تحقيقاً لنبوءة المسيح، وفى ذلك الوقت الذى فر فيه الفتية إلى الكهف كانت المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن خاضعة للدولة النبطية العربية، التى ما لبث أن اضمحلت بعد استيلاء الإمبراطور الرومانى (تراجان) على عاصمتها بطرا، أو (البتراء) عام ١٠٦ ميلادية.

أما فى الوقت الذى استيقظ فيه الفتية فإن دولة عربية أخرى كانت قد قامت على انقاض الدولة النبطية، وهى دولة الغساسنة التى شمل سلطانها المنطقة التى يوجد فيها الكهف، ومستعمرة الآسينيين فى خربة قمران وفى (بللا) حيث إن سلطان هذه الدولة كان يشمل بلاد حوران وشرق الأردن، وأطراف فلسطين، ويمتد أحياناً فيشمل دمشق دون مساس بالسيادة الرومانية التى كانت تخف حيناً وتشتد حيناً آخر، وقد ظلت هذه المملكة قائمة حتى الفتح الإسلامى، أما قيامها فقد اختلفت بشأنه الآراء، فهناك من يرجع بتاريخ نشأة هذه الدولة إلى القرن الأول الميلادى وهو المؤرخ العربى (حمزة الأصفهانى). فى حين يقول «جورجى زيدان): إنهم كانوا لا يزالون فى تهامة، موطنهم الأصلى، حتى أواسط القرن الثانى الميلادى، أما المستشرق الألمانى (نولدكه) فإنه يقول: إن دولتهم نشأت فى القرن الخامس الميلادى، حيث إن أول ملك من ملوكهم، على حد قوله، ويدعى (جبلة أبو شمر) توفى نحو عام خمسمائة ميلادية، ولكن جورجى زيدان وإن كان لا ينكر على (نولدكه) إصابته فى كثير من ملاحظاته، إلا أنه لا يوافقه على ما ذهب إليه من حصر تلك الدولة فى عشرة ملوك فقط، حكموا مائة سنة وبعض المائة، كما أنه لا يوافق حمزة الأصفهانى على أنهم ٣٢ ملكاً، حكموا ستة قرون وهو لذلك يقدم رأياً وسطاً ذهب فيه إلى أن الغساسنة نزلوا الشام بعد أواسط القرن الثانى الميلادى، وقد يكون نزولهم فى القرن الثالث(٥٩). فإذا كان ذلك صحيحاً فمعناه أن المنطقة التى عثر فيها على مستعمرة الآسينيين، ثم على الكهف المجاور لعمان، كانت خاضعة لسلطان

(٥٩) العرب قبل الإسلام، صفحة ٢١١.

الغساسنة ابتداء من القرن الثالث وحتى الفتح الإسلامى، وذلك بعد أن انتهى الصراع بينهم وبين الضجاعم الذين كانوا من قضاعة، والذى كان من نتائجه سيطرة الغساسنة على المنطقة وإنشاء دولتهم فى البلقاء وحوران، واتخاذهم من (بصرى) عاصمة لها، ثم امتداد سلطانهم إلى ممتلكات دولة الأنباط البائدة، بعد أن سحبت الدولة الرومانية حاميتها من البتراء فى عهد الإمبراطور (فالنس) فى النصف الثانى من القرن الرابع، وبنمو دولتهم واشتداد ساعدها وازدياد قوتها، أحس الرومان بحاجتهم إليها، فاستعانوا بها ضد عدوتهم اللدود دولة فارس، متخذين منها دولة حاجزة تمنع عنهم هجوم الفرس، كما اتخذت فارس من دولة الحيرة دولة حاجزة ضد هجوم الروم.

ومعنى هذا ببساطة أن خربة قمران وعمان وغيرها من المناطق التى تقع شرقى الأردن، كانت تحت حكم ملوك الغساسنة، فإذا كان هناك ملك استيقظ الفتية فى عهده، فإنه يكون ملك الغساسنة وليس ثيودوسيوس ملك الروم وإمبراطورهم الذى كان يقيم على بعد مئات الفراسخ فى القسطنطينية، بعيداً عن عمان وخربة قمران والرقيم.

والمعروف أن الدولة الغسانية اعتنقت المسيحية على مذهب التثليث، وفى القرن الثالث الميلادى أظهر المدعو (بريل) الذى كان أسقفاً لبصرى مذهبه المنكر للبعث وخلود النفس وقيامة الموتى، وقد أحدث كلامه هذا صدى سرعان ما راح يتردد ويتسع مداه حتى شمل المنطقة الممتدة من بصرى إلى خربة قمران وعمان، وكل شرق الأردن وغيرها، حيث رحب به اليهود الذين كانت طائفة منهم وهى طائفة الصدوقيين تنكر البعث كما سبق أن ذكرنا، وما وافى القرن الخامس حتى كانت الغالبية العظمى من الناس سواء منهم اليهود أو المسيحيون تشك فى البعث والحساب، فجاء استيقاظ الفتية وانبعاثهم فى الكهف ليثبت لهؤلاء وأولئك أن البعث حقيقة لا شك فيه.

ومع ذلك فإننا لازلنا نصر على القول بأن هذه المعجزة لم يكن مقصوداً بها الجموع التى تعيش تحت سلطان دولة الغساسنة، بل ولا كل المسيحيين ولا كل اليهود، ولكن كان المقصود بها عدداً قليلاً من الناس هم الذين عاينوا حادثة الانبعاث فى الكهف، وهم فى واقع الأمر لم يكونوا - كما ذهب إلى ذلك معظم

المفسرين والمؤرخين المسلمين ـ مسلمين يرفعون على باب مدينتهم اسم الله الواحد الأحد، وإنما كانوا مشركين يشكون فى البعث والحساب أو ينكرونه، وإلا فإنهم لو كانوا مسلمين يؤمنون بالله الواحد وبالبعث والحساب ما كانت هناك حاجة إلى إثبات هذه الحقيقة لهم. فالمعروف أن كل المعجزات سواء ما جرى منها على أيدى الأنبياء أو الصالحين، وما لم يقع منها على يد أحد منهم، وإنما وقع مباشرة، لم تحدث إلا لإثبات حقيقة هى بذاتها موضع شك أو محل إنكار، ولعل هذا يبدو لنا بوضوح من قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ (٦٠).

فقد تنازع الناس واختلفوا فى أمر الفتية وبطبيعة الحال فإن النزاع كان حول حقيقتهم، وهل قضوا فعلاً هذه الفترة نياماً أو لا؟ وهل هم الفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول؟ فلما ازدادت حيرتهم وعجزوا عن الوصول إلى رأى واحد بشأنهم قالوا: ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾

وقولهم: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾

وليس «ربنا أعلم بهم» يفهم منه أنهم ما زالوا ينظرون إليهم على أنهم يعبدون ربًّا غير رب القوم.

وقد سبق أن رأينا الفتية يقولون حين أووا إلى الكهف:

﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

فميزوا بين ربهم الذى يعبدونه، وبين رب قومهم أو أربابهم. وكانت هناك جماعة أخرى وصفها المؤرخون والمفسرون بأنهم الملك وأعوانه:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

هذا مع العلم بأنه ليس بشرط أن يكون هؤلاء الغالبون على أمرهم هم أصحاب السلطان الدنيوى، فقد يكونون من أصحاب السلطان الدينى، من رجال الكهنوت الذين كانوا قد قاسموا الملوك سلطانهم، وشاركوهم فى سطوتهم باسم الدين، وهذا هو

(٦٠) سورة الكهف، الآية ٢١.

الأرجح ؛ لأنهم قالوا لنتخذن عليهم مسجداً ، أى معبداً .. وهؤلاء ملعونون ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى أن النبى ﷺ قال : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

ومع ذلك فإننا نجد المفسرين والمؤرخين المسلمين يصرون على أن الملك والناس فى (أفسوس) كانوا صالحين ومسلمين ، فما هى ضرورة إظهار المعجزة إذا كانوا مسلمين يؤمنون بالبعث والحساب ؟ وكيف يكونون ملعونين ومن شرار القوم ، كما قال الرسول وهم المسلمون الأتقياء ؟ ألا يدلنا هذا على مدى التناقض الذى وقع فيه المفسرون والمؤرخون ؟

والمرجح أن يكون استخدام القرآن لكلمة « مسجد » يقصد به الدلالة على أن القوم كانوا من اليهود ، وليس فقط للدلالة على مكان العبادة ، حيث إن النصارى لا يسجدون فى كنائسهم ، ولكن اليهود هم الذين يفعلون ذلك ، وهو جزء من صلاتهم أمروا به منذ القدم :

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (٦١) .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن تأثر بعض المفسرين والمؤرخين ، قديماً وحديثاً ، بالقصة المسيحية جعلهم يبذلون جهدهم للتوفيق بينها وبين القصة القرآنية ، ولو على حساب الحقائق التى اشتملت عليها القصة الأخيرة وهو ما ظهر بوضوح فى محاولتهم تفسير الآيات الخاصة بعدد الفتية ، وبالمدة التى لبثوها فى الكهف ، فقد وجد البعض أن عدد الفتية فى بعض الروايات المسيحية أكثر من سبعة ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه ، كما وجدوا أن المدة التى لبثوها فى الكهف أقل بكثير من المدة التى ذكرها القرآن ، فما كان منهم لرفع هذا الاختلاف إلا أن أولوا الآيات بقصد إيجاد التطابق بين القصة المسيحية والقصة الإسلامية ، وكأن القصة المسيحية حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فإذا تعارض القرآن معها كان ذلك ضده لا له ، فيجب التوفيق بينهما ، وكأن القرآن بحاجة إلى

---

(٦١) سورة البقرة ، الآية ٥٨ .

دليل لإثبات صدقة وتأكيد صحته، والله تعالى يعلم ما فى القصة المسيحية من افتعال وكذب وافتراء، وأولو العلم يعلمون أنها لا تتضمن من الحقيقة إلا جزءاً ضئيلاً يقتصر على واقعة لجوء الفتية إلى الكهف ونومهم فيه، أما ما عدا ذلك فإضافات من صنع «چيمس الساروجى» يتناقض بعضها مع بعض، وهو ما نعتقد أن القارىء قد أدركه.

الاختلاف فى عدد الفتية:

يقول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (٦٢).

ونلاحظ هنا أن عدد الفتية فى كل مرة كان فرديًّا: ثلاثة، خمسة، سبعة، مضافاً إليها الكلب فى كل مرة، وهذا أمر عجيب، فلماذا لم يقولوا ثلاثة ثم أربعة ثم خمسة وهكذا؟ وهذا هو المعتاد إذ يختلف الناس فى فرد واحد زيادة أو نقصاً، ثم لماذا لم يقولوا: اثنان ثم أربعة ثم ستة وهكذا؟ لعلنا نجد تفسير هذا الأمر فيما كان عليه النظام لدى الأبيونيين، فقد سبق أن ذكرنا أنهم كانوا يتآخون اثنين اثنين طالما كانوا فى وسط الجماعة، فإذا انتقلوا خارجها وجب عليهما أن يصحبا معهما ثالثاً أكبر منهما سنًّا وخبرة، لكى يقودهما وينصح لهما ويوجههما، وهكذا فإن الاثنين يصحبان ثالثاً، والأربعة يصحبون خامساً والستة يصحبون سابعاً، وهذا يرجع إلى أن كل اثنين يكونان متآخيين، وقد كان عدد الفتية ستة، اثنين اثنين، ومعهم قائد أو مرشد أو رئيس وهو الذى كانت الطائفة تطلق عليه اسم «مباقر» بالعبرية، ومعناها المفتش، وهذا يفسر لنا قول أحدهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٦٣).

فهذا الشخص هو «المباقر» أو المفتش أو المرشد، وهو الأكبر سنا والأكثر خبرة

---

(٦٢) سورة الكهف، الآية ٢٢.

(٦٣) سورة الكهف، الآيتان ١٩، ٢٠.

وحنكة، أما الستة الآخرون فكانوا من الشباب الذين دخلوا الجماعة حديثاً.

ولا يبدو لنا صحيحاً ما ذكره البعض من أن الاختلاف فى عدد الفتية سببه أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران، كانوا عند النبى ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبيًّا: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب: وكان نسطوريًّا: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل عليه السلام (٦٤). فهذا الكلام إذا صح فإنه يتعارض مع الرواية التى سبق ذكرها، وهى الخاصة بتحريض اليهود لقريش على توجيه السؤال الخاص بالفتية الذين ذهبوا فى الزمن الأول، أى أصحاب الكهف، فجاء الرد بواسطة الوحى متضمناً القصة كلها، وهذا يعنى أن الخلاف بشأن عدد الفتية لم يكن له محل أو موجب طالما أن القصة قد نزلت كاملة.

وإذا افترضنا صحة ما ذكره الزمخشرى وغيره، فإنه يحق لنا أن نسأل: لماذا قال اليعقوبى: إنهم أى الفتية، كانوا ثلاثة فى حين قال النسطورى إنهم كانوا خمسة، وقال المسلمون: إنهم كانوا سبعة، ولماذا لم يقولوا: إنهم كانوا ثلاثة وأربعة وخمسة، أو اثنين وثلاثة وأربعة، أو أربعة وخمسة وستة وهكذا؟ لاشك أن النصارى وكذلك اليهود الذين كانوا على علم، أو على الأقل كانوا قد سمعوا بقصة الفتية كانوا يعلمون الشىء غير القليل عن نظام الآسينيين الذى ورثته شيعتهم من الأبيونيين، فجاء الوحى يردد ما كانوا يقولونه دون تغيير أو تبديل، حتى يثبت لهم أن محمداً ﷺ، الذى لم يكن لديه علم بنظام الآسينيين، إنما يتلقى العلم من الله العليم الذى لا تخفى عليه خافية.

ويهمنا ونحن بهذا الصدد أن نوضح أمراً على جانب كبير من الأهمية، لا ندرى كيف غفل عنه معظم المفسرين، ذلك أنهم فسروا الآية الخاصة بعدد الفتية مستندين إلى قصة السيد والعاقب وهما الكاهنان اللذان قيل إنهما حضرا للقاء رسول الله ﷺ، حيث ثار الجدل حول عدد أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبيًّا: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطوريًّا: كانوا خمسة

---

(٦٤) الزمخشرى، المرجع السابق، صفحة ٤٧٨.

سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، وقال الله قول المسلمين ، الذين عرفوا ذلك بإخبار الرسول ﷺ على لسان جبريل عليه السلام .

ولا ندرى كيف أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين فى وجود المسيحيين (السيد والعاقب ومن كان معهما من أهل نجران) ولماذا لم يرد هو مباشرة طالما أنه كان جالساً معهم ؟ وقد عرفنا أنه ﷺ كان يبلغ ما نزل عليه الوحى به مباشرة إلى من يهمه الأمر من رجال أو نساء ، دون أن يتخذ فى ذلك واسطة إلا فيما ندر .

ومع ذلك فإن هناك الرواية الأخرى التى تقول إن اليهود قاموا بتحريض قريش على توجيه بعض الأسئلة إلى الرسول بهدف التحقق من صدق نبوته ، من بينها السؤال الخاص بالفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول ، أى أصحاب الكهف ، فنزل الوحى عليه مشتملاً على الإجابة عن أسئلتهم ، ولا ندرى أى الواقعتين أسبق فى الحدوث ؟ هذه الواقعة أم واقعة السيد والعاقب ؟

ونعتقد أن ثبوت حدوث إحدى الواقعتين ، يعنى نفى حدوث الأخرى ، وهذا أمر منطقى ، إذ طالما أن سؤالاً قد طرح وتمت الإجابة عنه فليس هناك ما يبرر إعادة طرحه . فلو أن سؤال قريش كان قد حدث أولاً ، فمعنى ذلك أن كل المسلمين قد علموا بالإجابة التى اشتمل عليها الوحى ، بحيث إنه إذا أعاد أحد السؤال ، فإن أى مسلم يمكنه ببساطة شديدة أن يقدم له الإجابة ، فإذا كان مسيحيو نجران عندما حضروا مع السيد والعاقب قد طرحوا السؤال الذى لم يكن لديهم علم بما نزل من وحى بشأنه ، فإن أى مسلم من الحاضرين كان يمكنه أن يرد عليهم دون أن ينتظر وحياً ينزل على الرسول ثم يقوم الرسول بإخبارهم به .

وكذلك إذا كانت واقعة سؤال وفد نجران قد سبقت واقعة سؤال قريش بتحريض من اليهود ، فإن معنى ذلك أنه ما كان بالرسول عليه الصلاة والسلام حاجة إلى انتظار الوحى يحمل إليه الإجابة ، وقد قيل إنه تأخر عليه فعانى من ذلك ما عانى .

لذلك فإننا نرجح أن يكون ما ورد فى سورة الكهف بشأن الفتية ، إنما كان إجابة للسؤال الذى وجهته قريش إلى الرسول ﷺ بتحريض من اليهود ، وليس

كما قيل إجابة لسؤال السيد والعاقب. يؤيد ذلك أكثر من قرينة بل دليل، لا ندرى كيف غفل عنها المفسرون، فمن ناحية يبدو ما أوردوه من جدل زعموا أنه دار بين المسلمين والسيد والعاقب ساذجاً وغير مقنع؛ إذ لم يبينوا لنا لماذا قال كل فريق إن عدد الفتية كان كما زعم: ثلاثة وخمسة وسبعة. فبدا الأمر وكأنه مزايدة لا معنى لها، ومن ناحية ثانية جاء تفسيرهم لقول المسلمين إن عدد الفتية كان سبعة، غريباً فى بابه ومثيراً للدهشة، فلو تصورنا الجدل وقد بدا مما ذكروه أنه كان سريعاً، فالسيد قال: إن عدد الفتية كان ثلاثة، فرد العاقب قائلاً إنهم كانوا خمسة، فرد المسلمون قائلين إنهم كانوا سبعة. كيف؟ يقول المفسرون: إن ذلك بإخبار الرسول ﷺ عن لسان جبريل، وكأنه من عادة جبريل عليه السلام أن يحضر مثل هذه اللقاءات، ليكون فى نجدة المسلمين يمدهم بالإجابات على الفور!!

وكان لتمسك المفسرين بقصة السيد والعاقب أثره الواضح على تفسيرهم، لما ورد فى القرآن عن عدد الفتية، فنسوا أن الله تعالى قال: (سيقولون ثلاثة) أى أنهم سوف يقولون فى المستقبل، ولم يقل «يقولون» أو «قالوا». وهذا منطقى لأن الواقعة الصحيحة والحقيقية هى واقعة سؤال قريش للرسول عن «الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول». وسؤالهم عن «ذى القرنين» وسؤالهم عن «الروح» فى رأى، وعن صاحب الجنين فى رأى آخر، ولذلك جاءت الإجابة فى القرآن مسبوقة بـ(ويسألونك عن ذى القرنين) وفى الثانية بـ(ويسألونك عن الروح). وقد اقتصرت قريش على السؤال فقط فى انتظار الإجابة لتعرضها على اليهود لينظروا فيها ويروا رأيهم، وما إذا كانت خاطئة أم صائبة، ولذلك جاءت الإجابة فى القرآن شاملة برغم إيجازها الشديد، فصادرت على ما قد يقوله اليهود: «سيقولون ثلاثة.. ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب» فهم لم يقولوا بعد، ومن الواضح أن التفات المفسرين عن واقعة سؤال قريش للرسول ﷺ واقتصارهم على واقعة السيد والعاقب، لم يوقعهم فى هذا الخطأ فحسب، بل أوقعهم فى غيره من الأخطاء، نظراً لرغبتهم، بل حرصهم على أن يبدوا متسقين مع ما غلب على ظنهم من أنه كانت هناك أقوال من هذين الكاهنين لم يزد دور القرآن، فى رأيهم، على الإخبار بها، فقالوا: إن ما ذكره عن عدد الفتية ومدة

لبثهم فى الكهف ليس إلا خبراً عن أهل الكتاب وليس تقريراً، وهذا من أعجب ما يكون، إذ كيف ينزل الوحى على الرسول بما يقوله أهل الكتاب دون أن يرد على سؤالهم ؟! وهل كان هذا هو نفسه أسلوب القرآن فى إجابته عن الأسئلة الأخرى كسؤالهم عن ذى القرنين، وعن الروح ؟

والواقع أن القرآن الكريم لم يذكر عدد الفتية، أو مدة لبثهم فى الكهف، على سبيل التقرير فحسب، بل ذكرها على سبيل الإفحام بأمر لم يكن اليهود ولا المسيحيون يعتقدون أن أحداً يعرفه، فهو فيما ذكره من أعداد حرص على أن يلتزم ترتيباً معيناً لا شك أن له دلالة، كما سبق أن ذكرنا، وقلنا إنه كان ينبغى أن يسترعى انتباه المفسرين، فالأعداد الفردية : ثلاثة وخمسة ثم سبعة لا شك أن لها دلالة، وأقل ما يمكن أن نستنتجه من وجودها على هذا النحو، أنها تعنى أن الشيعة التى كان ينتمى إليها الفتية اتبعت فى تنظيمها لعمل أعضائها، نظاماً يكون عددهم بموجبه فردياً، إما بشكل دائم، أو فى ظروف معينة، فالقرآن إذن لم يذكر هذه الأرقام اعتباطاً أو كيفما كان، وهو بذلك يكون قد كشف لليهود عن سر لا يعلمه إلا القليل، هذا السر يكمن فى تكوين الأعداد على هذا النحو الفريد، الذى يذكرهم بما كان عليه نظام شيعة أصحاب الكهف، وهو النظام الذى سبق أن وصفناه، حتى إذا سمع اليهود الأرقام : ثلاثة وخمسة وسبعة أدركوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام الذى لا علم له بما كانت عليه هذه الشيعة من نظام، إنما هو رسول الله حقاً.

ومما لاشك فيه أن موقفهم كان سيختلف إذا جاءت الأعداد بشكل مختلف، فإنهم كانوا سيقولون إن الرسول إنما يذكر أرقاماً كيفما اتفق له، ولكن القرآن ذكرها لهم كما كانت بالفعل، وهذا يشبه أن يسأل شخص شخصاً آخر عن تكوين جيش فى بلد ما فيقول له : إنه يتكون من سرية وكتيبة ولواء، أو من غير ذلك مما تعرفه الجيوش، وقد تختلف فيه،فلو أنه أجاب بغير ما هو معروف فسوف يثبت كذبه، كأن يذكر نظاماً تطبقه دولة ما على أنه مطبق فى الدولة التى سأله عنها. أو كأن يدلى بأى إجابة كيفما اتفق، وعلى أى حال فالبون شاسع بين هذا المثال وما ورد فى القرآن بشأن عدد الفتية، فنظام الآسينيين وشيعتهم الآبيونيين لم يكن شائعاً ولا معروفاً لأحد من العرب، بل ولا لغيرهم، ففيما عدا قلة من اليهود

والنصارى كانوا قد توارثوا العلم بهذا الأمر، لم يعلم بهذا النظام أحد إلا بعد العثور على لفائف البحر الميت.

وعلى الرغم من وضوح الأمر، فإن بعض المفسرين اعتقاداً منهم بدقة الرواية المسيحية التى ورد فى بعضها أن عدد الفتية كان أكثر من سبعة، ولرغبتهم فى تحقيق المطابقة بين القصة الإسلامية، وتلك الروايات المسيحية لجئوا إلى تأويل الآيات وفسروها بطريقة من شأنها أن تجعلها تحتمل أى عدد تتضمنه الروايات المسيحية، فقد ذكر الطبرى رواية منسوبة إلى ابن عباس قال فيها: إنهم كانوا ثمانية نفر، وذكر المقدسى أنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً، ويقول سيد قطب: «وإنه ليستوى أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أو أكثر، وأمرهم موكول إلى الله وعلمهم عند الله، وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه، أو من رؤيته الصحيحة فلا ضرورة إذن من الجدل الطويل حول عددهم» (٦٥). فهو لا يرى أن ما ورد بالآية بشأن عدد الفتية، إنما ورد على سبيل التقرير، وهو ما ذهب إليه أحد رواة قصص القرآن (٦٦) فى تعليق له على ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية حيث قال: «إن القرآن لم ينص على عدد أهل الكهف، ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم (ربى أعلم بعدتهم) والملاحظ أن للشيخ عبد الوهاب النجار كتاباً عن قصص الأنبياء، أبدت اللجنة العلمية التى ألفها عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر للنظر فى الكتاب، رأيها فيه وكان مما قالته: «إنها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لأسباب أهمها أن مؤلفه تعسف فى التأويل، وخَرَّج الآيات القرآنية تخريجاً بعيداً إن لم يكن باطلاً، فخالف بذلك إجماع المفسرين، ولم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحاً، ومع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكم عقله، ويجعل التوراة والإنجيل مهيمنين على القرآن» (٦٧).

وفيما قاله ابن تيمية (٦٨) تفسيراً لهذه الآية، الرد الكافى على أصحاب الرأى

(٦٥) فى ظلال القرآن، المرجع السابق، صفحة ٢٢٦٥.

(٦٦) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث صفحة ٤٥٦، تعليق الشيخ عبد الوهاب النجار.

(٦٧) راجع مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار.

(٦٨) مقدمة فى أصول التفسير، صفحة ٤٧.

القائل بأن عدد الفتية لم يذكر على سبيل التقرير، وإنما على سبيل الخبر عن أهل الكتاب، فهو يقول: «فقد اشتملت الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده على ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: (قل ربى أعلم بعدتهم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٦٩).

أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنه لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف، وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل عن الأهم، فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فيما تركه، أو يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً، فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، ويرجع حاصلها إلى قول، أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وأكثر مما ليس بصحيح، فهذا كلابس ثوبى زور».

كذلك يقول المودودى (٧٠) فيما ورد بالآية: ومع ذلك يغلب على الظن بأن عددهم الصحيح سبعة فتية؛ لأن الله تعالى لم ينفه أو يدحضه.

كذلك اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فمنهم من عده خبراً عن بعض الناس وليس قول الله وتقريره. ودليلهم على ذلك أن الله تعالى يعلق بعد ذلك مباشرة بقوله: (قل الله أعلم بما لبثوا) فلو كان العدد المذكور تقريراً من الله، لما كان لقوله بعد ذلك

(٦٩) سورة الكهف، الآية ٢٢.
(٧٠) المرجع السابق، صفحة ٢٨.

مباشرة: (قل الله أعلم بما لبثوا) معنى قط. وهو قول لقتادة ومطرف بن عبد الله اللذين قالا: إن هذا القول حكاية لكلام أهل الكتاب، وهو رأى بعض المحدثين، ومنهم المودودى، والشيخ النجار الذى سبق أن أشرنا إليه والذى قال فيه: «أكثر المفسرين تعتبر أن قوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم منذ دخوله إلى أن استيقظوا، ولكنى أفهم غير ذلك وأقول إن قوله: (ولبثوا) إلخ معمول لقوله: (سيقولون ثلاثة) إلخ فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى، ولذا أتبع ذلك القول بقوله: (قل الله أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل). وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم (ربى أعلم بعدتهم) وأن يرد عليهم حين يقولون: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) بقوله: (الله أعلم بما لبثوا). وقد ورد هذا القول عن ابن عباس. غير أن ما قاله الشيخ النجار ليس له وجود فى تفسير ابن عباس، بل إن الثابت بأسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنه قال: إن عددهم كان سبعة، وهو موافق لما ذكرت الآيات ولم يقل إنه خبر عن أهل الكتاب. أما قوله تعالى: (قل الله أعلم بما لبثوا) فمعناه أنه تعالى أعلم من الذين اختلفوا فى مدة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به (٧١).

ولابن كثير رأى وإن اتفق فيه مع الزمخشرى إلا أنه يختلف معه بشأن معنى (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فهو يقول: «هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية. فإن تفاوت ما بين كل مائة (سنة) بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا تسعاً) ويقول: وهذا الذى قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف» (٧٢).

ومن هذا الرأى الأستاذ سيد قطب الذى يقول: «وإلى هنا لم نكن نعلم:

---

(٧١) الزمخشرى، المرجع السابق، صفحة ٤٨١.

(٧٢) المرجع السابق، صفحة ١٤٦.

كم لبث الفتية، فلنعرفه على وجه اليقين» ويذكر الآية، ثم يقول: «هذا هو فصل الخطاب فى أمرهم، يقرره عالم غيب السموات والأرض» (٧٣).

ومن الذين أدلوا برأى فى هذا الموضوع شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٤) ففى رده على ما ذكر ابن البطريق، من أن الفتية لبثوا فى الكهف مائة وسبعاً، أو تسعاً وأربعين سنة قال: «هذا مما أخطأ فيه، فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، لكن بعض المفسرين زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله (الله أعلم بما لبثوا) وليس كذلك، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب بل ذكره كلاماً منه تعالى».

أما الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف (ابن الخطيب) (٧٥) فإن له رأياً فيما قاله ابن كثير تفسيراً لقوله تعالى: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) من أن التسعة تمثل الفرق بين التقويمين الشمسى والقمرى، وهو ما رده من بعده بعض المحدثين فهو يقول: «إن ما تضمنته بعض التفاسير المحدثة والقديمة تأويلاً لقوله تعالى عن أصحاب الكهف: (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) إن «ثلاثمائة» بالتاريخ الميلادى وثلاثمائة وتسعة بالتاريخ الهجرى (٧٦) هو تكلف لا داعى له البتة يتنافى مع لغة العرب التى نزل بها القرآن، وإنما المعقول المقبول فى التأويل عند ذوى العقول: أن الله تعالى بعثهم من مرقدهم على رأس الثلاثمائة من السنين، وكان من أمرهم ما كان! ثم أنامهم تسع سنين أخرى فى كهفهم ثم أماتهم كما يميت غيرهم».

وعلى الرغم من وجاهة تأويل الأستاذ (ابن الخطيب) فإنه لم تتضح فيه الحكمة من إنامة الله للفتية تسع سنين أخرى زيادة على الثلاثمائة، والأقرب إلى التصور أن يكونوا قد لبثوا فى الكهف بعد استيقاظهم لمدة تسع سنين أخرى، بعد أن أعثر الله تعالى الناس عليهم، وهذا هو الأقرب إلى المنطق، حيث إن سياق

---

(٧٣) فى ظلال القرآن، صفحة ٢٢٦٦.

(٧٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الجزء الثالث، صفحة ٣٤.

(٧٥) حقائق ثابتة فى الإسلام، صفحة ١٣٩.

(٧٦) الصحيح «التقويم القمرى» لأنه عند نزول آيات سورة الكهف، بل والقرآن كله، لم يكن العرب قد عرفوا ما يسمى بالتقويم الهجرى الذى لم يبدأ استعماله إلا فى عهد عمر بن الخطاب.

الآيات لا يبين منه ما إذا كانوا قد ماتوا عقب العثور عليهم أم أنهم ماتوا بعد ذلك بتسع سنين كما يقول الاستاذ (ابن الخطيب) فالآية تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾

ويعقب العثور عليهم التنازع بشأنهم:

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾

مما يفهم منه أنهم ماتوا عقب العثور عليهم. وطبقاً لما قاله ابن الخطيب، فإن استيقاظ الفتية أعقبه نقاشهم فى المدة التى لبثوها فى الكهف، ثم صدر الأمر من قائدهم بذهاب أحدهم إلى المدينة لشراء الطعام، فلا يتصور أن يعودوا إلى النوم مرة أخرى، إلا إذا كان يعتقد أن الله أراد أن يشاهد الناس ويعاينوا حالهم وهم نائمون لمدة أخرى بلغت هذه المرة تسع سنين، وهذا مالا نعتقد أنه يفيد فى شىء وإنما المفيد أن يشاهدهم الناس وقد عادوا إلى الحياة والحركة فى كهفهم، وربما يكون ذلك أدعى إلى تصديقهم حيث إنه لا يكفى ظهور أحدهم فى سوق المدينة وقد ارتدى ثياباً ترجع إلى زمن مضى، سواء أكان قرنين أم ثلاثة، وحمله نقوداً قديمة لتصديقه فيما يقوله من أنه كان نائماً هو وزملاؤه كل هذه المدة فى أحد الكهوف، وهو ما زعمت القصة المسيحية أنه حدث فأدى إلى تصديق وجوه المدينة بما قاله الفتى، وبادروا إلى إخطار الملك بالأمر فحضر على الفور لرؤية المعجزة! فهذا القول من (چيمس الساروجى) يدل على السذاجة، أو على الأقل حسن النية، وهو مالم نعرفه فى هؤلاء القوم، فكهذا-وببساطة شديدة، ولمجرد وجود قطع من النقود ترجع إلى عهد بعيد مع شخص ما يرتدى ثياباً قديمة، ترجع إلى قرنين مضيا، وهو تقدير المسيحيين للمدة التى لبثها الفتى فى الكهف -يبادر الناس إلى الإيمان بأن الفتية كانوا نياماً كل هذه المدة، وأنهم يمليخا ومكسميلينا وغير ذلك من أصحاب الكهف الذين وردت أسماؤهم بالقصة المسيحية، وعنها نقلها بعض المفسرين المسلمين، وأى أناس أولئك الذين صدقوا القصة! إنهم ثيودوسيوس وشيعته من أتباع (بولس) الذين لم يؤمنوا بما هو أقرب إلى التصديق من ذلك الذى قاله الفتية. إنهم لم يصدقوا أن الله قادر على أن يغفر الذنوب

والخطايا والآثام إن شاء، وزعموا أنه لكى يسقط عن ذرية آدم عليه السلام الخطيئة التى ارتكبها بمعصته الله تعالى، والتى انتقلت إلى هذه الذرية من بعده، فقد اضطر، أى الله، تعالى، عن ذلك علوا كبيراً، إلى أن يبعث ابنه، فى قول، وأن ينزل هو بنفسه فى قول آخر ليدخل رحم أنثى من البشر ثم يولد، ثم يمر بمراحل النمو المتتالية، حتى إذا بلغ مرحلة الرجولة بدأ يدعو الناس إلى التوبة والخير والحب والرحمة، ثم إذا به يُقبض عليه ويحاكم وينفَّذُ فيه حكم الإعدام فيموت مصلوباً من أجل أن يفدى البشرية بدمه ويُسْقِط عنهم خطيئة آدم!. فلم أنهم كانوا بالبساطة التى تصور المفسرون المسلمون أنهم عليها لكفوا أنفسهم مئونة التحايل واللف والدوران، والدخول فى تفسيرات أشد غموضاً من الفكرة ذاتها، ولا عترفوا أن المسيح ليس ابنا الله، وأنه مجرد بشر اختاره الله لإبلاغ رسالته، فهل يتصور عاقل أن مثل هؤلاء الناس، الذين دفعتهم المكابرة والتمسك بالباطل إلى حد الشرك، أن يؤمنوا هكذا وببساطة بما قاله فتى يحمل نقوداً قديمة، ويرتدى ثياباً تنتمى إلى عصر غير العصر، ويصدقوا زملاءه حين قالوا لهم إنهم كانوا نياماً لمدة قرنين تقريباً، ثم استيقظوا! هذا مالا يمكن تصوره، ولو أنه حدث لكان عدول أتباع بولس عن غيهم أسهل، ولآمنوا بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، ولكنهم للأسف لا يزالون سادرين فى غيهم، بل إنهم يزدادون مع الوقت عناداً ومكابرة.

فالأقرب إلى التصور إذن أن الفتية الذين ظلوا فى الكهف ثلاثمائة سنة استيقظوا واستأنفوا حياتهم فى الكهف لمدة تسع سنين، فإذا نفس الناس الذين شاهدوهم بالأمس، والذين سمعوا بهم من آبائهم يشاهدونهم وقد استيقظوا وتحركوا، إنها المعجزة الحية التى كان مسرحها أحد الكهوف، والتى كان أبطالها فتية مؤمنين.

أما مايقال عن النقود، فإن المعروف أن تداولها فى الأزمنة القديمة لم يكن مرهوناً بوجود ملك معين فى الحكم أو عدم وجوده، ومن يقرأ التاريخ فسوف يجد أن نقوداً ترجع إلى عهود قديمة تصل إلى قرون ظلت متداولة هنا وهناك، دون أن يشك أحد فيمن يحوزها أو يرتاب فيمن يتعامل بها. ولنا أن نتصور الآن أن شخصاً ماظهر فجأة وقد ارتدى ثياباً قديمة ترجع إلى العصر المملوكى، ويحمل

نقوداً ترجع إلى ذلك العصر، وادعى أنه كان قد أوى إلى كهف من كهوف جبل المقطم، حيث ظل نائماً فيه مدة لا يعلمها وأنه استيقظ ليجد نفسه وسط أناس لا يعرفهم، فهل سنصدقه حتى لو قدَّم لوحاً أو رقيماً كتبت عليه قصته؟ لاشك فى أننا سوف نرجح أن يكون قد عثر على النقود وكذلك الثياب فى مكان ما ككهف أو قبر قديم.

وإذا كان الله تعالى قد أشار إلى (الورق) أى النقود التى كانت مع الفتية، فإنما فعل ذلك للدلالة على أن الفتية عندما أووا إلى الكهف لم يتصوروا أنهم سوف يقضون فيه كل هذا الوقت نائمين لا يحتاجون إلى طعام أو شراب، فحملوا معهم نقوداً لمواجهة متطلبات الحياة، فهم كما قال البعض لم يكونوا متواكلين ينتظرون أن يأتيهم الطعام بلا سبب أو بدون سعى.

كذلك فإن ذكر نقود فى القرآن له أكثر من دلالة، فهو من ناحية يصور لنا الحال التى كان عليها الفتية عندما اتخذوا قرارهم بالاختفاء فى الكهف، فهم شأنهم شأن كل هارب من خطر محدق به لم يفكروا فى حمل متاع قد يثقلهم ويقلل من سرعتهم فى الهرب، أو ربما كان الخطر المحدق بهم مباغتاً وسريعاً بحيث لم يجدوا أمامهم وقتاً لجمع ما يحتاجون إليه، فاكتفوا بالنقود باعتبار أنه بواسطتها يمكنهم أن يشتروا ما يحتاجون إليه.

كذلك يبدو أن الوقت القليل الذى كان متاحاً لهم للهرب إلى الكهف، لم يمكنهم من شراء طعام يقتاتون به أثناء وجودهم فى الكهف، أو أنهم لم يكونوا فى حالة ذهنية أو نفسية تسمح لهم بالتفكير فى الطعام أو فى غيره، وكل ما كانوا يفكرون فيه هو الإفلات من الخطر الداهم، وهذا شأن كل إنسان يواجه خطراً عظيماً أو تتهدده مصيبة جُلى، فهو يحصر تفكيره فى كيفية الخلاص منها، فإذا كان مؤمناً، كما كان حال الفتية، فإنه يضرع إلى الله ويدعوه لكى يخلصه مما يوشك أن يصيبه، وهو ما فعله الفتية حالما استقر بهم المقام فى الكهف، حيث أخذوا يضرعون إلى الله تعالى قائلين:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٧٧).

(٧٧) سورة الكهف، الآية ١٠.

فهم فى حالتهم التى كانوا عليها يلتمسون من الله أن يرحمهم وأن يسدد خطاهم ويرزقهم الرشد حتى لا يضلوا.

كذلك فإن قول رئيسهم لهم: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾

يدل على أن ما كان مع الفتية من نقود كان مملوكاً لهم ملكية جماعية، وليس ملكية فردية بحيث يحتفظ كل منهم بنقوده فى حوزته، ثم يساهم منها بنصيب حينما يحتاجون إلى شراء شىء. وهذا يتفق مع ما كان عليه نظام جماعة الآسينيين التى كانت تؤاخى بين أعضائها اثنين اثنين، فإذا انضم الاثنان إلى اثنين آخرين أو أكثر شملهم النظام الجماعى السائد فى الجماعة التى لم يكن فيها مكان للإنسان الفرد.

فمعاً يأكلون، ومعاً ينامون، ومعاً يدرسون ويتعبدون ويصلون، ومعاً يواجهون الخطر، ومعاً يموتون، وكل ما لديهم من مال أو متاع أو طعام ملك للجميع لا لواحد، حتى ولو كان هو الذى جاء به أو اشتراه، أو حصل عليه بأى طريقة، وللجميع نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، والامتياز لا يكون بالأمور المادية، ولكن بالمكانة التى أحرزها العضو بواسطة الدرس والتحصيل والعبادة والعمل فى سبيل الجماعة والالتزام بنظامها ومبادئها. فهم فيما بينهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، يتعانون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان، وكيف لا وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

فتية آمنوا بالله الواحد لا بالثالوث كما زعم المفسرون الذين نقلوا عن المصادر المسيحية بدون تمحيص أو إعمال نظر، فينتهى بهم الأمر إلى الوقوع فى التناقض.

وفيما يتعلق بما قاله بعض المفسرين تفسيراً لقوله تعالى: (قل الله أعلم بعدتهم) وقوله: (قل الله أعلم بما لبثوا) من أن ما ذكره الله بشأن عددهم والمدة التى لبثوها فى الكهف إنما جاء على سبيل الخبر عن النصارى أو اليهود، الذين قالوا إن عددهم سبعة وإنهم لبثوا فى الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، فإنه

بالإضافة إلى ما ذكره المفسرون الذين يقولون خلاف ذلك، أى أن الله إنما ذكر هذا خبراً منه سبحانه وليس إخباراً بما قاله اليهود والنصارى، إن ما ورد بكتب السيرة النبوية من أن مشركى قريش بعثوا باثنين منهم ليسألوا يهود يثرب عن أشياء أو أمور يسألون بشأنها محمداً لعلهم يكشفون ادعاءه النبوة، واتصاله بخبر السماء. فما كان من اليهود إلا أن أشاروا عليهما بأن يسألوه عن ثلاثة أشياء، وكان من بين الأشياء الثلاثة أمر الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، فإذا صحت هذه الرواية، وهى على ما يبدو صحيحة؛ لأن الجواب جاء فى القرآن الكريم بشأن ذى القرنين والروح وقد استهل بـ(ويسألونك عن ذى القرنين)، وبـ(يسألونك عن الروح) مما يدل على أنه كانت هناك أسئلة وجهت إلى الرسول ﷺ بشأن بعض الأمور.

والمعروف أنه إذا تلقى شخص سؤالاً عن أمر ما، فإنه يجب عليه أن يقدم ردًّا محدداً وواضحاً، حتى لا يتهم بالكذب فيما يدعيه من قدرة على الاتصال بمن لديه العلم بهذا الأمر، أو بما يدعيه لنفسه من علم. فما بالنا إذا كان هذا الشخص يقول إنه نبى، وإنه يأتيه خبر السماء بواسطة الوحى، لا شك أنه يكون أشد التزاماً من غيره بتقديم الجواب الحاسم والواضح والدقيق على ما وجه إليه من أسئلة، لكيلا يترك أى فرصة للشك فى نبوته، ويقضى على كل فرصة قد تثير الارتياب فى أمره، وإلا فإنه سوف يظهر أمام السائلين وأمام غيرهم ممن يراقبون الموقف بحذر فى انتظار حسم الأمر، سواء له أو عليه، بمظهر الكاذب الدعى، ومن ثم يفقد كل شىء.

والذى لا شك فيه أيضاً أن الرسول ﷺ، وكذلك العرب عامة كانوا يعلمون أن اليهود عندهم علم بأحداث وقعت فى الأزمنة الغابرة، فلو أنه، أى الرسول ﷺ، لم يأت بجواب عن أسئلتهم، أو أتى بإجابات غير صحيحة أو غير واضحة ومحددة، فإنه سوف يظهر بمظهر من لا أساس صحيح لقوله إنه رسول الله وعلى اتصال بالوحى، ومقتضى قول هذا الفريق من المفسرين الذين فسروا الآيتين، أن ما ورد بشأن الفتية من حيث عددهم ومدة لبثهم فى الكهف إنما جاء على سبيل الإخبار عما كان يقوله اليهود والنصارى، أن محمداً ﷺ لم يقدم الجواب عن سؤالهم، فلم يقل لهم: كم كان عدد الفتية، ولا كم من الزمن لبثوا فى الكهف،

وهما بيانان من أهم بيانات القصة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القصة ذاتها جاءت موجزة أشد الإيجاز، وفى أسلوب مجرد تكاد تخلو من التفاصيل، فإن معنى هذا أن الرسول ﷺ لم يقدم إجابة شافية ومحددة للسؤال الذى وجه إليه، وهذا غير متصور لأنه يشبه أن تسأل شخصاً ما عن عدد الأفراد فى مكان ما فيرد عليك قائلاً: إنهم يقولون: إن عددهم كذا أو كذا، وينسى أنه قال إنه يعرف عددهم، أو إنه بوسعه أن يعرفه لأنه على اتصال بمن يعرف كل شىء ويعلم كل شىء، وأنه يأتيه الوحى بخبر السماء والأرض، فإذا به لا يعرف كيف يجيب عن سؤال كهذا، بل وأكثر من سؤال، حيث إن إجابته عن السؤال الخاص بالروح اكتفى فيه بالقول إن علمها عند الله تعالى، فإذا كان موضوع الروح سرًّا من الأسرار التى اختص الله بها نفسه فليس كذلك عدد الفتية ولا المدة التى لبثوها فى الكهف.

لذلك فإن البيان الخاص بعدد الفتية وبمدة لبثهم، إنما هو خبر عن الله تعالى، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، يؤيد هذا أننا لا نجد فيما ورد بالروايات المسيحية بياناً مماثلاً للبيان الخاص بالمدة التى لبثوها فى الكهف، وقد سبق أن ذكرنا ما قيل فى هذا الصدد وهو ولا شك قد جاء على سبيل التحديد خاصة، وأن هذه الروايات تزعم أن الفتية لجئوا إلى الكهف فى عهد ملك يدعى (ديكيوس) معروف تاريخه ومدة حكمه، وأنهم استيقظوا فى عهد ملك يدعى ثيودوسيوس معروف تاريخه أيضاً وكذلك مدة حكمه، والخلاف بين بعض هذه الروايات وبعضها، فيما يتعلق بمدة لبث الفتية فى الكهف، إنما يعود سببه إلى طول مدة حكم الملك الأخير، أى ثيودوسيوس الذى ولى الحكم لمدة بلغت ثمانية وأربعين عاماً، مما جعل القول بأن الفتية استيقظوا فى عهده يحتمل معه القول بأنهم استيقظوا فى أول حكمه أو فى منتصفه أو فى نهايته، وفى كل مرة تختلف المدة اختلافاً واضحاً ولكنها لم تبلغ قط فى كل ما ذكر من روايات مسيحية عن الفتية، الرقم الذى ورد فى القرآن على سبيل التحديد: (ثلاثمائة سنين وزادادوا تسعاً).

كذلك فإننا لم نقرأ فيما ورد فى كتب السيرة أو فى غيرها أن أحداً سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا اعترض على ما ذكره القرآن الكريم بشأن عدد الفتية، وذلك خلاف ما حدث بالنسبة لقصة موسى والعبد الصالح، حيث حاول أحد اليهود الذين أسلموا أن يشكك فى شخصية موسى عليه السلام فقال: إن موسى الذى

كان مع العبد الصالح ليس هو موسى نبى إسرائيل وإنما هو موسى آخر، وهو ما ذكره مسلم فى صحيحه (٧٨).

وقد عرفنا أن القصة المسيحية قد حددت عدد الفتية فى عنوانها «نيام أفسوس السبعة» مما يدل على أنه فى الوقت الذى سمع فيه «جيمس الساروجى» بالقصة فى بلده بالعراق، بعد أن وصل خبرها إليه قادماً مع المسافرين من فلسطين والأردن والشام، كان عدد الفتية الذين وقعت لهم المعجزة معروفاً لعدد من الناس، أما المدة التى لبثوها فى الكهف فلم تكن معروفة على وجه التحديد، نظراً لأن التاريخ الذى لجأ فيه الفتية إلى الكهف لم يكن معروفاً على

---

(٧٨) ورد فى مسلم مرفوعاً إلى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفاً البكالى (نسبة إلى بنى بكال بطن من حمير) يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بنى إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام، فقال: كذب عدو الله، سمعت أبَىّ بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أى ربى كيف لى به؟ فقيل له: احمل حوتاً فى مكتل (القفة أو الزنبيل) فحيث تفقد الحوت فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حوتاً فى مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت فى المكتل حتى خرج من المكتل فسقط فى البحر، قال: وأمسك الله عنه جرية الماء حتى كاد مثل الطاق، فكان الحوت سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتها ونسى صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى أمر به، قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً، قال يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: انى بأرضك السلام. قال أنا موسى، قال موسى نبى إسرائيل؟ قال: نعم. قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، قال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً؟ قال إنك لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على مالم تحط قال أنا موسى، قال موسى نبى إسرائيل؟ قال: نعم. قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، قال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟ قال إنك لن تستطيع معى صبراً، وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً إلى آخر القصة كما وردت فى القرآن الكريم.

سبيل التحديد، وهو ما أعطى لهذا القس ولغيره الفرصة للاختلاق والادعاء بأن الفتية إنما لجئوا إلى الكهف فى عهد (ديكيوس) وإنهم استيقظوا فى عهد ثيودوسيوس. فلو أن ما ذكره القرآن لم يكن واضحاً ومحدداً ما سكت أعداء الإسلام ولانبروا لتفنيده، ولقارنوا بينه وبين ما يحتفظون به تحت أيديهم من أدلة وبراهين لدحض ما ذكره الرسول ﷺ، ولكن نظراً إلى أنهم لم يكونوا يعرفون عن القصة إلا ما سمعوه نقلاً عن آخرين لم يعاصروها بدورهم، فإن القرآن قد جاءهم بالخبر اليقين لا بشأن عدد الفتية وحسب، ولا بشأن المدة التى لبثوها فقط، بل قدَّم لهم وصفاً جليا وواضحاً للكهف وللفتية بداخله وهكذا، فلم يملكوا إلا أن يلوذوا بالصمت.

أما فيما يتعلق بإجابة الرسول ﷺ عن السؤال الخاص بالروح، وأنها من أمر الله:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٩).

فإن هذه الإجابة لم تأت هكذا اعتباطاً أو لمجرد الهروب من السؤال بعد العجز عن الإجابة عنه، ولكنها جاءت عن قصد وبثقة كاملة؛ لأن أحداً من البشر سواء اليهود أو غيرهم كان لديه علم بأمر الروح، ومن ثم فإنه لم يكن بمقدورهم أن يردوا على الرسول ﷺ بما لديهم من علم مزعوم بشأن الروح، أما المسائل الأخرى التى تقبل بطبيعتها إحاطة علم الإنسان بها، كالأحداث التاريخية والأخبار وغيرها، فإن الرد عليها لا ينبغى أن يكون غامضاً أو مبهماً أو فيه مراوغة؛ لأن احتمال وجود معلومات صحيحة لدى أصحاب السؤال يعرض المسئول للفضيحة بعد أن يظهر عجزه عن تقديم الإجابة الصحيحة، وكذبه فيما أدلى به من إجابة.

---

(٧٩) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

obeikandl.com

خلاصـــة :

فى ضوء ما تقدم من تحليل ونقد لقصة «نيام أفسوس السبعة» يمكننا أن نقدم تصوراً لما نعتقد أنه القصة الحقيقية لأصحاب الكهف، نستمد عناصره من الظروف والأوضاع والملابسات المختلفة التى اشتملت عليها الدراسات التاريخية، سواء منها ما كان قديماً أو ما كان حديثاً.

ومما لاشك فيه أن العثور على ما يسمى بلفائف خربة قمران، التى تشتمل على جزء هام من تاريخ طائفة الآسينيين التى ينتمى إليها فتية الكهف ساعد إلى حد كبير فى تكوين بناء القصة بشكل سليم ومتسق، كما أنه أدى فى الوقت نفسه إلى كشف التزوير الذى قام به «چيمس الساروجى» وغيره من أساقفه الكنيسة الكاثوليكية، عندما انتحلوا الفكرة الأساسية للقصة، وهى نوم الفتية فى كهف لمدة طويلة، ثم نسجوا لها قصة لا أساس لها ادعوا أن أحداثها وقعت فى «أفسوس» وأن أبطالها فتية يونانيون يؤمنون بعقيدة التثليث، على ما بينا فى صلب الدراسة. والأسف فقد نقل عنهم المفسرون والمؤرخون المسلمون هذا السخف، وحاولوا جاهدين أن يوفقوا بينه وبين القصة القرآنية، وعلى الرغم من استحالة هذا التوفيق مما اضطرهم إلى تأويل الآيات بطريقة واضحة الافتعال، ترتب عليها الادعاء بأن الله تعالى لم يحدد فى قرآنه لا عدد الفتية ولا المدة التى لبثوها فى الكهف، لا لشىء إلا لأنهم وجدوا أن الروايات المسيحية اختلفت فيما بينها بشأن عدد الفتية، كما اختلفت مع القرآن بشأن المدة التى لبثوها فى الكهف، فما كان منهم إلا أن لجئوا فى حل المشكلة إلى إنكار أن يكون ما ورد من آيات فى هذا الصدد خبراً عن الله تعالى، وزعموا أنه خبر عما كان يقوله اليهود والنصارى.

وفاتهم أنه لا اليهود ولا النصارى قالوا إن المدة هى «ثلاثمائة سنين وتسعاً»، ولا أجمعوا على أن عدد الفتية كان سبعة.

ليس هذا وحسب، بل إنهم تغاضوا عن حقائق كثيرة، إما عن غفلة، وإما عن جهل بالحقائق التى لم تكن متاحة لهم فى ذلك الوقت، فما غفلوا عنه أن الفتية كانوا مسلمين يؤمنون بالمسيح بشراً رسولا، ويعبدون الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولميولد، ولم يكونوا من المسيحيين الذين يعبدون الثالوث، أما ما جهلوه فهو أن الملك «ثيودوسيوس» الذى قالوا عنه: إنه كان مسلماً صالحاً، لم يكن كذلك بل كان مشركاً فاسداً،على ما أوردنا عنه فى هذه الدراسة نقلاً عن المؤرخين الغربيين.

أما بعد أن توفرت معظم المعلومات التاريخية عن الفترة التى وقعت فيها حادثة الكهف، فإنه يمكننا أن نقدم التصور التالى لقصة الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول وهى كالآتى:

بعد أن رفع الله المسيح واجه الحواريون ظروفاً صعبة فى محاولتهم الاستمرار فى الدعوة إلى ما جاء به السيد المسيح، وما ذلك إلا لأن اليهود شنوا حملة من الإرهاب والاضطهاد على أبناء دينهم الذين آمنوا بالمسيح بشراً رسولاً، واضطر الحواريون إلى الخضوع للمجلس الأعلى اليهودى «السنهدرين» وإظهار الالتزام بأوامره حتى لا يتهمهم بالخروج على الناموس، ثم لما ضاقت بهم السبل فى فلسطين، ولمسوا استحالة القيام بالدور الذى سبق أن التزموا به أمام السيد المسيح، فى ظل الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، اضطروا إلى التفرق فى البلاد المجاورة للدعوة إلى مبادىء المسيح بين أهلها.

وحدث فى ذلك الوقت أن أعلن «بولس» إيمانه بمبادىء المسيح عليه السلام، ولكنه ما لبث أن زيف هذه المبادىء، بأن ادعى أن المسيح ليس بشراً رسولاً، ولكن إله وابن إله، فجعله بذلك شريكاً لله تعالى فى ملكه، وعلى الرغم من كراهية اليهود الذين بقوا على يهوديتهم للمسيح ولمبادئه، فإنهم أبدوا تساهلاً ملحوظاً مع الذين اعتنقوا مبادىء «بولس» باعتبار أن ذلك من شأنه أن يبقى عليهم كأصحاب الدين الوحيد الذى يدعو إلى التوحيد، وبالتالى يحفظ لهم

وضعهم كشعب الله المختار. وهذا كان ولا يزال دأب اليهود منذ أيام موسى عليه السلام، وهو ما تكرر عند ظهور الدعوة المحمدية، فقد وقفوا ضدها وحرضوا كفار قريش للقضاء عليها، على الرغم من أن الإسلام يدعو إلى عبادة الله الواحد الذى زعموا أنهم يعبدونه، فى حين أن الكفار مشركون يعبدون الأصنام ولذلك يلاحظ أن اليهود فى تاريخهم الطويل لم يلجئوا إلى التبشير بدينهم فى أى وقت من الأوقات، ولا فى أى مكان، كما أنهم لا يرحبون بمن يرغب فى الدخول فى دينهم مفضلين أن يبقوا على الوضع الذى هم عليه، من حيث قلة العدد والضعف، على أن ينضم إليهم من ليسوا من أصل يهودى، وما ذلك إلا لأنهم جبلوا على الأنانية وحب الذات والجشع والطمع وكراهية الخير للناس، والرغبة فى الاستئثار بما غلب على ظنهم أنه تفضيل الله لهم، وإيثارهم بالجنة دون غيرهم من الشعوب.

وعلى الرغم من تفشى مبادىء «بولس» التثليثية بين من سبق لهم اعتناق المسيحية، ومن اعتنقوها حديثاً، فقد بقيت طائفة صغيرة من اليهود كانت موجودة قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقرن أو يزيد هى طائفة «الآسينيين» آمن أعضاؤها بدين موسى وتمسكوا بناموسه، ورفضوا الانحراف عنه مع الطائفتين اليهوديتين، الكبيرتين، الصدوقيين والفريسيين، واعترضوا على ممارسات الأحبار التى يراعون فيها الشكل دون المضمون، ويتخذون من ذلك مبرراً لارتكاب كل الموبقات كالتعامل بالربا وأكل مال اليتامى والبغاء والكذب والنفاق والرياء.

فلما جاء المسيح لم تنكره طائفة الآسينيين، بل آمنت به بشراً رسولاً، واتبعته هى وطائفة «النذريين» أو «الناصريين» التى عرفت فى التاريخ باسم «النصارى» وما زالت تطلق على المسيحيين أتباع «بولس» التثليثيين إلى الآن على سبيل الخطأ، على الرغم من الاختلاف العظيم بين هؤلاء وأولئك، ولقد لقيت الطائفتان من اضطهاد اليهود وعنتهم وظلمهم الكثير، إلا أن هذا لم يزدهم إلا تمسكاً بعقيدة التوحيد، ولم يلبث المسيحيون من أتباع «بولس» أن انضموا إلى اليهود فى اضطهاد وملاحقة طائفة الآسينيين، وكذلك طائفة النصارى أو النذريين، وكان ذلك حوالى سنة ٤١ ميلادية عندما قتل المدعو يعقوب بن زبيدى فقبض على بطرس ولكنه فر، ثم قتل يعقوب العادل فى عام ٦٢، وبعد

أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما وأيقن المسيحيون المقيمون فى «أورشليم» أن نهاية العالم قد دنت، فلم يأبهوا بالشئون السياسية وخرجوا من المدينة وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن (مملكة الأنباط) وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد (تيطس) تحقيقاً لنبوءة المسيح، وكان ذلك عام ٧٠ ميلادية.

وفى عام ١١٥ — ١١٦ ميلادية قام اليهود بثورة قتلوا فيها غير اليهود، ووجهوا انتقامهم بالذات إلى طائفة «الآسينيين» التى كانت قد انتقلت لتقيم فى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وفى المنطقة التى أصبحت تعرف بـ(خربة قمران) حيث عثر على ما يسمى بلفائف البحر الميت أو لفائف خربة قمران فى العقد الرابع من هذا القرن، وهى مخطوطات هامة يبدو أن الآسينيين كانوا قد بادروا إلى وضعها فى جرار، وأخفوها فى المغارات المنتشرة فى المنطقة، عندما أدركوا أن مستوطنتهم وحياتهم أيضاً توشك أن تتعرض لخطر عظيم ماحق من جانب اليهود الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر، وتشتمل هذه المخطوطات على الكثير من مبادئهم ونظمهم وتاريخهم وأحوالهم وأوضاعهم.

والغريب فى الأمر أنه عقب العثور على تلك المخطوطات، وكان ذلك بواسطة أحد الأعراب- أن يبادر اليهود إلى شرائها، وكذلك بعض الهيئات الأمريكية حيث حرص هؤلاء وأولئك على إخفائها، ومنع العلماء من الاطلاع عليها، وكان هدفهم من ذلك إخفاء ما تتضمنه من حقائق تاريخية بالغة الأهمية، من شأنها لو أنها ظهرت أن تفضحهم وتكشف عن أكاذيبهم الكثيرة، وتؤيد ما جاء فى القرآن الكريم من آيات وبالذات بالنسبة لأصحاب الكهف، ومع ذلك فقد استطاع بعض الباحثين أن يطلعوا على بعض الأجزاء الهامة من هذه المخطوطات، وأن يدرسوها، فخرجوا على العالم ببعض الحقائق التاريخية عن طائفة الآسينيين كانت خافية على الناس. وقد ثبت من حفائر (خربة قمران) أن طائفة الآسينيين ظلت تقيم بالمنطقة حتى عام ٧٠ ميلادية، حيث خربت على أيدى اليهود، ومنذ هذا التاريخ انتقلت الطائفة إلى شرق الأردن، وبالذات فى المنطقة القريبة من (عمان) التى كانت تسمى (فيلادلفيا) وامتداداً إلى عاصمة دولة النبطيين

القديمة (البطراء) أو (بيرا) كما كانت تسمى فى اليونانية القديمة، حيث ظلوا يقيمون إلى سنة ١١٥ ــ ١١٦ ميلادية عندما وقع عليهم الهجوم الأخير.

وهناك احتمال فى أن يكون يهود «بنى النضير» الذين كانوا يقيمون فى المدينة (يثرب) إلى أن طردهم الرسول ﷺ منها بعد تواطئهم مع قريش اسمهم الأصلى «بنو النذير» نسبة إلى (النذريين) أو الناصريين الذين كانوا يقيمون فى فلسطين قبل ظهور المسيح عليه السلام، ثم لما ظهر آمنوا به على أنه النبى الذى بشرت به التوراة، فلما اضطهدهم اليهود الذين بقوا على يهوديتهم فروا إلى الجزيرة العربية، حيث أقاموا فى يثرب، وجرى تصحيف اسمهم إلى بنى النضير، كما ارتدوا إلى اليهودية واحتفظوا بتراثهم القديم، ومن بينه قصة الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، وإلا فمن أين لهم العلم بهذه القصة؟ على الرغم من أنه علم مبتور.

ومما يرجح هذا الفرض أنه لا يوجد فى الأبجدية العبرية حرف «الضاد» الذى لا يوجد إلا فى الأبجدية العربية، ومن هنا يمكن تفسير علمهم بما حدث للفتية وسؤالهم الرسول ﷺ، واعتقادهم فى ظهور نبى آخر الزمان، الذى وردت الإشارة إليه فى التوراة، وهو محمد عليه الصلاة والسلام.

ونحن لا نتفق مع بعض الباحثين الذين ذهبوا إلى القول بأن لجوء الفتية إلى الكهف كان فى عام ١٣٢ ميلادية، عندما شرع الإمبراطور الرومانى (هدريان) فى بناء هيكل لجوبيتر مكان هيكل سليمان الذى سبق أن دمره تيطس سنة ٧٠ ميلادية، فثار عليه اليهود تحت قيادة (بركوشيبا) الذى ادعى أنه المسيح المنتظر، إذ يبدو أنهم، أى أصحاب هذا الرأى، قد تأثروا بالقصة المسيحية التى جعلت من بين شخوص المعجزة ملكين أحدهما (ديكيوس) الذى قيل إن الفتية هربوا منه إلى الكهف، والثانى (ثيودوسيوس) الذى زعموا أن الفتية استيقظوا فى عهده، فرغبوا فى أن يكون التعديل محدوداً بحيث يقتصر على إحلال ملك محل آخر، وذلك حتى يسدوا الثغرة الواسعة بين المدة التى ذكر القرآن الكريم أن الفتية لبثوها فى الكهف، والمدة التى ذكرت القصة المسيحية أنهم لبثوها، خاصة بعد أن اطمأنوا إلى ما قاله بعض المفسرين من أن القرآن الكريم لم يذكر المدة (ثلاثمائة سنين وازدادو تسعاً) باعتبارها خبراً عن الله تعالى، وإنما باعتبارها خبراً عن اليهود أو المسيحيين. ولما لاحظوه من إصرار المفسرين المسلمين على

القول بأن (سذوس) أى ثيودوسيوس هو الملك الذى استيقظ الفتية فى عهده، فآثروا أن يجروا تعديلاً على تاريخ لجوء الفتية إلى الكهف، فينقلوه من عهد (ديكيوس) إلى عهد (هادريان) وبالذات عام ١٣٢ الذى قامت فيه ثورة (باركوشيبا) فإذا أضفنا إليها «ثلاثمائة سنين وتسعاً» التى ذكرها القرآن أصبح التاريخ الذى استيقظوا فيه عام ٤٤١ فى أواخر حكم (ثيودوسيوس) وذلك دون أن يقدموا الدليل على صحة هذا الفرض، وعلى الرغم مما ذكره بعض المؤرخين المسيحيين، من أن لجوء الفتية إلى الكهف كان فى عهد (ديكيوس) الوثنى الذى أراد أن يكرههم على عبادة الأوثان وتقديم القرابين لتمثاله!

والذى نرجحه أن لجوء الفتية إلى الكهف إنما كان فى عام ١١٦ ميلادية فى نهاية الثورة التى قام بها اليهود، وقتلوا فيها غير اليهود ممن اعتنقوا المسيحية، فما لبث المسيحيون أن هاجموا اليهود وانتقموا منهم بأن قتلوا أعداداً غفيرة، وهذا الاستدلال يتفق مع سياق القصة القرآنية، وذلك على الوجه التالى: فعندما قام اليهود بقتل اليهود المرتدين عن اليهودية، أى المسيحيين، وتصوروا أنهم قد انتصروا (عام ١١٥) دعوا من كانوا يعتبرونهم مرتدين ومن بينهم الآبيونيون (الزهاد) وهم شيعة أصحاب الكهف إلى عبادة (يهوه) ولكنهم رفضوا ذلك، وهو ما يصوره القرآن فى قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (٨٠).

أى أن ربهم رب الناس جميعاً وليس (يهوه) رب اليهود وحدهم، فلما رد المسيحيون الهجوم واستطاعوا أن ينتصروا على اليهود دعوا الفتية الذين كانوا يعتبرونهم مثلهم، مسيحيين، إلى عبادة الثالوث ولكنهم أبوا. وهو ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله على لسان الفتية.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٨١).

---

(٨٠) سورة الكهف، الآية ١٤.

(٨١) سورة الكهف، الآية ١٥.

وقد أغضب رفضهم هذا المسيحيين فأصروا، فى غمرة زهوهم بالنصر الذى أحرزوه على اليهود أن يدعوهم لترك عبادة الله الواحد، ويعبدوا ثالوثهم (الأب والابن والروح) فما كان من الفتية إلا أن تداولوا فى شأن الإجراء الذى يحفظ عليهم دينهم وعبادتهم لله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد، فانتهوا إلى أن لامفر من الاعتزال: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (٨٢).

وهكذا مضوا إلى الكهف الذى طالما اعتزلوا فيه للتأمل والعبادة، حيث ضرب الله على آذانهم فيه سنين عدداً.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (٨٣).

ثم بعثهم سبحانه وتعالى ليعلم أى الحزبين (اليهود والمسيحيين) أحصى للمدة التى لبثوها فى الكهف.

وهكذا تظهر بجلاء الحكمة من ذكر الله تعالى لإله رفض الفتية أولاً أن يعبدوه، ويتركوا عبادة ربهم رب السموات والأرض، ثم ذكره لآلهة من بينها الله تعالى فيرفض الفتية أن يعبدوها أيضاً، ويقررون أن يعتزلوا قومهم هم وما يعبدون إلا الله تعالى، وإلا فما معنى ورود الآيات على هذا النحو؟ وقد سبق أن بينا عدم صحة قول من ذهبوا إلى أن المقصود هم الرومان الذين كانوا يعبدون الأوثان، وشرحنا كيف أنهم لم يكونوا يعبدون الله من تلك الأوثان، وأقمنا الدليل على ذلك.

وكان نظام الآسينيين الذى ورثه عنهم (الزهاد) أو كما يعرفون فى التاريخ بالآبيونيين، يقوم على المؤاخاة بين كل عضوين، وعلى الملكية الجماعية للمال، ووسائل الإنتاج والمساكن والخدمات وكل شىء، وكان مجتمعهم يخلو من النساء، على ما جاء فى هذه الدراسة، وكان تدريب الأخوة، وهم عادة من الشباب الصغير السن، يقوم به الكبار من أعضاء الجماعة الذين كانوا يسمون مرشدين أو

(٨٢) سورة الكهف، الآية ١٦.

(٨٣) سورة الكهف، الآية ١١.

رؤساء، ويسمى الواحد منهم فى العبرية «مباقر». فكان كل أخوين يتحركان، معاً، ويعملان معاً، ويتعبدان معاً، تحت إشراف «المباقر» وتوجيهه، فإذا اقتضى الأمر انضمام أخوين إلى أخوين آخرين أو أكثر لم تعد هناك حاجة لوجود أكثر من مرشد واحد، أو كما كانوا يسمونه «مباقر» حتى لا يحدث خلاف بينهم، أو يقع تعارض فى التعليمات والإرشادات، وهكذا فإنه على الرغم من أن الأعضاء الصغار من الشباب كانوا يعيشون معاً اثنين اثنين، فإنهم كانوا عندما ينخرطون فى التدريب، أو فى التعليم، أو فى العبادة والتأمل داخل الجماعة أو خارجها، كان ينضم إليهم ثالث هو المرشد أو المباقر، فإذا انضم شابان إلى شابين آخرين لم تكن هناك حاجة إلى أكثر من مباقر واحد، فيصبح عددهم خمسة، وهذا يفسر لنا لماذا كان الرد عن السؤال الخاص بعدد الفتية دائما برقم فردى: ثلاثة وخمسة وسبعة؛ لأن كل شابين كانا معاً مضافاً إليهما المرشد، فإن العدد يصبح ثلاثة، فإذا انضم إليهم شابان آخران أصبحوا خمسة، فإذا انضم شابان آخران أصبح العدد سبعة.

وهكذا ألقت مخطوطات البحر الميت أو كما تسمى أحياناً «مخطوطات خربة قمران» الضوء على اللغز الذى كان قد حير المفسرين المسلمين، وجعلهم يتخيلون أموراً لا نصيب لها من الحقيقة فقد قالوا إن الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم، أو من أشرافهم، ولكن ماذا بشأن الرجل الكبير السن الذى قيل إنه كان معهم؟ من هو؟ لقد اختلفت الروايات بشأنه، فمن قائل إنه من الحواريين! ومن قائل إنه رجل صالح كان يعمل خبازاً فى أحد مخابز المدينة، ثم اتهم بقتل أحد أبناء الحكام ففر مع الفتية، وغير هذا وذاك من الروايات التى لا سند لها من الحقيقة، فجاءت مخطوطات البحر الميت لتميط اللثام عن سر هذا الرجل، فإذا به ليس أكثر من أحد أعضاء جماعة الآسينيين الكبار الذين عهد إليهم بالإشراف على أعضاء الجماعة من الشباب وتوجيههم، والذى كانوا يطيعونه ولا يناقشون له أمراً.

وكانت طائفة الأبيونيين تقيم فى منطقة جبلية تكثر بها الذئاب وغيرها من الحيوانات المفترسة، فكان من المنطقى أن تحتفظ بكلاب من النوع الكبير الحجم، القوى الشرس، الذى يقدر على مواجهة مثل هذه الحيوانات، ويحمى الطائفة من هجماتها. وعلى الرغم من بساطة هذه الحقيقة ووضوحها، فإن المفسرين أجهدوا

أنفسهم فى تفسير كيف لحق الكلب بالفتية، وأنه تكلم معهم وتوسل إليهم أن يصحبوه معهم، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا ضرورة لها، وليس هناك ما يبررها عقلاً ولا منطقاً، كما أنها لا تفيد فى شىء ولا متعلق لها بالقصة، فمن الطبيعى أن يتبع أى كلب أصحابه حيثما ذهبوا، وقد تبع الكلب الفتية أو تبع «المباقر» فالأمر سواء، المهم أنه قد أصابه ما أصاب الفتية فنام مثلما ناموا، ولكنه كان باسطاً ذراعيه على باب الكهف ليبدو كما لو كان مستيقظاً متحفزاً.

وكان المكان قفراً مهجوراً لا يتردد عليه أحد، إلا من كان هارباً لسبب أو لآخر وأمثال هؤلاء يتجنبون الناس حتى لا يتعرفوا عليهم، ثم يبلغوا عنهم من يلاحقونهم، ويتجنبونهم أكثر إذا كانوا جماعة مكونة من سبعة أفراد، لمظنة أن يكونوا عصابة إجرامية فيعتدوا عليهم، فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما أضفاه الله تعالى على الفتية من منظر مخوف يسبب الرعب لمن يطلع عليهم ـ عرفنا لماذا بقوا فى كهفهم كل هذا الوقت دون أن يقترب منهم أحد.

وفى هذه الأثناء كانت طائفتهم قد تفرقت وتشتت فى البلاد وازدادت المنطقة التى يوجد فيها الكهف إقفاراً وانقطاعاً عما حولها، إذ لم تكن رؤية الناس لهم وهم فى تلك الحالة مطلوبة ولا مقصودة بأى حال من الأحوال، ومات من كانوا يطاردونهم من يهود ومسيحيين، وزالت دولة الأنباط، وقامت دولة الغساسنة التى اعتنقت المسيحية التثليثية التى انتشرت وسادت، خاصة بعد أن أعلن الملك قسطنطين اعتناقه المسيحية على مذهب «بولس»، فأستقر الأمر بمعتنقيها وشعروا بالأمان والطمأنينة، وانطلقوا فى كل مكان يمرحون ويعبثون، وظهر فيهم من أضاف إلى التثليث إنكار البعث بعد الموت، وكان ذلك على وجه الخصوص فى الشام حيث كان تأثير اليهود الصدوقيين الذين ينكرون البعث واضحاً.

وعندئذ أراد الله سبحانه وتعالى أن تظهر الحكمة الثانية من نوم الفتية فى الكهف كل هذا الوقت، وهى إثبات أن البعث حق وليس خيالاً كما ادعى الذين أنكروه، فاستيقظ الفتية من نومهم الطويل، وبعثوا أحدهم إلى المدينة التى كانت على مقربة من الكهف وهى مدينة «عمان» أو كما كانت تسمى «فيلادلفيا» التى كان يحكمها حاكم مسيحى من الغساسنة، ويقيم فيها مسيحيون من العرب الغساسنة جنباً إلى جنب مع اليهود الذين ظلوا يعيشون على

جانبى نهر الأردن، وكانت غالبيتهم من الطائفة اليهودية التى تنكر البعث وهى طائفة «الصدوقيين» التى أوحت بهذه الفكرة إلى بعض المفسرين ورجال الدين والفلاسفة من المسيحيين التثليثيين، فلما وصل الفتى إلى المدينة وعرف أمره وأمر أصحابه، وانتقل أحبار اليهود والقساوسة المسيحيون إلى الكهف، حيث ناقشوا الفتية ورئيسهم فى أمرهم، فأدركوا مما سمعوه منهم حقيقتهم وأنهم البقية الباقية من تلك الطائفة التى ظنوا أنهم قضوا عليها منذ ثلاثمائة سنة، والتى لم تبرح ذكرى المعارك الدامية غير المتكافئة التى دارت معها ذاكرتهم، فظلوا يرددونها فيما بينهم دون أن يدونوها فى كتبهم؛ لأن ذلك ليس فى صالح الحزبين أى اليهود والنصارى، فاليهود لا يعترفون بالمسيح لا بشراً رسولاً ولا إلهاً وابن إله، ولم يهتموا بتدوين أى حدث يتعلق به أو بمبادئه، والمسيحيون لا يفيدهم أن تنبعث من جديد فكرة الإله الواحد، مدعمة بمعجزة عظيمة كمعجزة أصحاب الكهف.

كذلك فإنه لا هؤلاء ولا أولئك كانوا يعلمون شيئاً عن الوقت الذى أوى فيه الفتية إلى الكهف على سبيل التحديد، وإنما استمعوا إلى ما قاله الفتية عن الظروف التى لجئوا فيها إلى الكهف وضاهوا بينها وبين ما كان لديهم من معلومات تاريخية قليلة، أو بالأحرى مشوهة ومبتورة بشكل مقصود، نظراً لكراهية كلا الحزبين، اليهود والنصارى، لطائفة الفتية. وإن كان هناك عدد قليل من هؤلاء وأولئك يعلمون الحقيقة، ولكنهم لا يصرحون بها إما خوفاً أو طمعاً وحرصاً على مكانة، أو سلطة دينية أو دنيوية.

لذلك رأى بعض من حضروا إلى موقع الكهف أن يقام بناء على كهف الفتية بعد أن ماتوا قائلين: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾ (٨٤).

ولم يقولوا «ربنا» أعلم بهم؛ لأنهم لا يزالون يعتبرون الفتية صابئين لا يعبدون آلهتهم، وهؤلاء هم النصارى الذين يعبدون الثالوث، والذين سمعوا الفتية يتحدثون عن الله الواحد الأحد، الذى لم يلد ولم يولد.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

(٨٤) سورة الكهف، الآية ٢١.

وهؤلاء هم أحبار اليهود الذين كانوا لكثرة عددهم لهم الغلبة، فمنذ أن هربوا من الرومان إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، ومنها إلى الجزيرة العربية، وهم يمثلون مركزاً للقوى بما جمعوه من أموال وثروات مكنتهم من السيطرة على المجتمعات التى هاجروا إليها، وهذا ما حدث أيضاً فى الجزيرة حيث حلوا فى المدينة (يثرب) وما حولها، وأصبحت لهم الغلبة على من كان يقيم فيها من الأعراب، مستخدمين الثروة تارة، والكيد والخداع والوقيعة بين القبائل تارة أخرى. وليست العبرة فى الغلبة بالعدد فها نحن نرى فى هذا العصر كيف أن اليهود فى الولايات المتحدة، ونسبتهم كما هو معروف ضئيلة بالمقارنة مع نسبة بقية السكان من مسيحيين وغيرهم، يسيطرون على مراكز اتخاذ القرار فى هذه الدولة، ويوجهونها كيفما يشاءون حتى ولو كان ذلك فى غير صالحها، وهكذا كان وضعهم يوم استيقظ الفتية. يدل على ذلك أنهم كانوا فى ذلك الوقت يسجدون فى صلاتهم دون غيرهم، وهم النصارى الذين لا يعرفون السجود فى الصلاة.

وهكذا انتهت المعجزة بإقامة المسجد على الكهف الذى مات فيه الفتية، ونشك كثيراً فيما يقال من أن البناء الذى اكتشف فوق الكهف هو كنيسة وهو ما ينفيه قولهم «مسجداً». ولكن خبر المعجزة لم ينته، بل بدأ ينتشر من المكان الذى وقعت فيه إلى المناطق المجاورة يتناقله الناس، ولكنه ما لبث أن فقد الكثير من تفاصيله وخطوطه الدقيقة، كما فقد بعض جاذبيته وما فيه من إثارة، فمن سمع ليس كمن رأى.

ويبدو أن بعض الرهبان فى الشام كتب القصة بالسريانية وهى ما كان يكتب به أهل الشام، وذلك بعد زمن من وقوعها، ثم شاءت الظروف أن يعثر عليها «جيمس الساروجى» من ساروغ فى العراق وكان قسًّا لكنيستها، فما كان منه إلا أن انتحل الفكرة ثم نسج حولها قصة من صنع خياله، أدخل فيها على الحادثة ملكاً هرب الفتية منه هو (ديكيوس) وملكاً آخر استيقظ الفتية فى عهده هو «ثيودوسيوس» الثانى، وجعل مسرح المعجزة (أفسوس) مهد التثليث ومعقل الشرك، وأبطالها فتية من الرومان يعبدون الثالوث، ومضى يردد القصة وهو يلقى عظاته زاعماً أن المعجزة حدثت منذ خمسين عاماً فى أفسوس، مطمئنًّا إلى أن أهل ساروغ فى العراق لا علم لهم بما حدث فى أفسوس منذ نصف قرن، فى حين أن

سكان أفسوس أنفسهم فى مدينتهم لا يعلمون شيئاً عما يدعيه القس المتحمس، فهم لم يسمعوا بهذه المعجزة فى أى وقت، ومفكروهم وعلماؤهم ومؤرخوهم لم يتركوا حدثاً من الأحداث التى وقعت فى مدينتهم، أو فى غيرها من المدن القريبة منها إلا ودونوه، وبخاصة الأحداث ذات الطابع الدينى مثل الصراع بين أقطاب الكنيسة الكاثوليكية ومكائدهم ودسائسهم التى بلغت حد القتل والخطف والاتهام بأبشع التهم، فكيف فاتهم أن يدونوا حدثاً خطيراً كهذا؟ ومع ذلك فقد استهوت الأكذوبة رجل دين آخر هو «جريجورى» أسقف مدينة «تور» فتلقفها ليضيفها إلى تراث الكنيسة من الأكاذيب والافتراءات، ولسان حاله يقول: إنها لن تكون أكبر من أكذوبة أن المسيح ابن الله، ثم ماذا يهم إذا كانت قد حدثت هنا أو هناك، وأن يكون «ثيودوسيوس» قد شاهدها أو لم يشاهدها وبادر «جريجورى» إلى إصدار أوامره بترجمة القصة وإذاعتها فى الناس؛ ليثبت لهم أن التثليث حق، وأن ما يدعو إليه بعض رجال الكنيسة من توحيد الله وإنكار بنوة المسيح له كذب، وهذا هو الدليل: ألم يشمل (الأب) برحمته أولئك الفتية المؤمنين به أباً ليسوع، فحماهم من (ديكيوس) الوثنى عدو الكنيسة وأهلكه؟ ثم يخص الملك «ثيودوسيوس» المؤمن بالثالوث المدافع عنه ببركته، بأن جعل المعجزة العظيمة تظهر فى عهده، واستجابة من الله تعالى لدعائه أن يظهر آية تعيد إلى الناس الإيمان بالبعث، فشاهد المعجزة تتحقق أمام عينيه! فماذا بعد هذا؟

ولكن الله تعالى يشاء أن يتم الكشف عن الكهف الذى أوى إليه الفتية حقيقة فى المنطقة القريبة من مدينة عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، ومن البحث والفحص يتبين أن ما ورد بشأنه من أوصاف فى القرآن الكريم يتوفر فيه، وبالذات من حيث موقعه من الشمس فى طلوعها وغروبها، ومن حيث وجود المسجد (المعبد) فوقه، الذى يرجع إلى عهد الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس الثانى، الذى وجدت بعض النقود المعدنية التى تحمل نقشاً باسمه، فى حين أنه لم يثبت توفر شىء من هذه الأوصاف فى كهف (أفسوس) الذى زعم «جيمس الساروجى» أن الفتية أووا إليه.

وحتى إذا قبلنا ما قد يتعرض به علماء المسيحيين الذين يصرون على القول بأن المعجزة حدثت فى أفسوس، من أن ما ورد بالقرآن الكريم بشأن موقع الكهف من

الشمس فى شروقها وفى غروبها لا يلزمهم، وأنه ليس حجة عليهم؛ لأنهم لا يؤمنون به، فإننا بالإضافة إلى ما سقناه من أدلة وبراهين تدحض ادعاءهم أن المعجزة حدثت فى أفسوس نسألهم: إذا كان ما يقولونه حقاً، وأن الكهف الموجود فى أفسوس هو الكهف الذى أوى إليه الفتية، فلماذا لم يبن عليه رجال الكهنوت المسيحيون كنيسة كما كانوا يفعلون مع من كانوا يسمونهم بالشهداء فى تلك الحقبة من الزمن، وهم جميعاً لا يصلون فى أهميتهم وعظم ما وقع لهم إلى نصف، بل حتى ربع أهمية فتية الكهف وعظم ما وقع لهم من نوم، ثم بعث بعد قرنين أو أقل أو أكثر.

وقد عرفنا أنه فى عهد «ثيودوسيوس» على وجه الخصوص صدر مرسوم يبيح إقامة الكنائس على أضرحة شهداء المسيحية، الذين أطلقوا عليهم وصف القديسين، بل والأنبياء، وغالبيتهم العظمى لا علاقة لهم بالقداسة، ولنقرأ ما كتبه المؤرخ الإنجليزى الشهير (إدوارد جيبون) عنهم وعن أعمالهم التى يقع الكثير منها تحت طائلة القانون، فقد كان منهم من دس السم لغريمه ومنهم من مارس زنى المحارم، وغير ذلك من أعمال يندى لها الجبين، بعكس فتية الكهف الذين ثبتت طهارتهم، وتحقق صدق إيمانهم بالله الواحد الأحد، وتأكدت قداستهم بيقين بعد أن أصبحوا موضوعاً لمعجزة عظيمة، فى حين ثبت وجود المعبد فوق كهف (عمان)، وسواء أكان هذا المعبد كنيساً أم كان كنيسة مسيحية، فإن كونه كنيسة لا يطعن فيما توصلنا إليه من أن حادثة الكهف كان أبطالها فتية من شيعة الأبيونيين (الزهاد) فقد يكون الذين غلبوا على أمرهم هم المسيحيين الذين أمروا بإقامة الكنيسة على الكهف اطمئناناً منهم إلى إباحة مرسوم «ثيودوسيوس» لإقامة الكنائس على الأضرحة. ولولا أن أمر هذا المرسوم معروف للمؤرخين ولغيرهم من المهتمين بالتاريخ لربما بادر أنصار الفكرة القائلة بأن الكهف مكانه (أفسوس) إلى الطعن فيما استدل به مكتشفو الكهف قرب (عمان) من أنه كهف الفتية، استناداً إلى وجود المعبد فوقه، وهذا دليل من بين عدد آخر من الأدلة التى ساقها القرآن الكريم، فضلاً عن أنه يدل على أن القرآن هو من عند الله، وليس من وضع محمد ﷺ كما يزعمون، وإلا فمن أين له العلم بأن ثيودوسيوس كان يبيح إقامة الكنائس على القبور، وبالذات قبور الصالحين والأولياء.

وهكذا نجد أن ما كشفت عنه لفائف البحر الميت الخاصة بطائفة الآسينيين التى انبثقت عنها شيعة الأبيونيين (الزهاد) قد أسهم مساهمة عظيمة فى كشف غموض قصة الكهف، وبالذات فيما يتعلق بعدد الفتية والجزبين والإله ثم الآلهة، كما أسهمت كتب التاريخ الغربية التى تناولت الحقب القديمة، سواء منها ما كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام أو ما كان منها بعد ميلاده فى جلاء جانب آخر من الغموض الذى اكتنف تفاصيل المعجزة، التى أوردها القرآن الكريم موجزة أشد الإيجاز، ولكنه ضمنها بيانات غاية فى الأهمية، تكفى إذا ما فسرت فى ضوء الوقائع التاريخية لتحديد أين وقعت المعجزة، ومن هم أبطالها، وغير ذلك مما ورد فى سياق القصة. ولقد علمنا مما نشر عن الوثائق التى خلفها الآسينيون، أنه كان بينها نسخة من العهد القديم (التوراة) كانوا لا يعترفون بغيرها مما زوره اليهود، فلماذا لم تنشر هذه النسخة ليعرف العالم كله والمسلمون بخاصة، ما يوجد من أوجه اختلاف بين هذه النسخة وبين النسخ المتداولة وبالذات فيما يتعلق بما ذكره القرآن من أن البشارة بمحمد ﷺ وردت فى التوراة وفى الإنجيل أيضاً، وهو ما نرجح وجوده فى النسخة التى تم العثور عليها، أولاً بواسطة أحد الرعاة من الأعراب الذى باعها لرجل مسيحى، باعها بدوره لليهود الذين سارعوا إلى شراء بقية اللفائف ثم أودعوها الجامعة العبرية، ولم يطلعوا عليها إلا عدداً قليلاً من الباحثين، الذين تواطئوا مع اليهود فلم يخبرونا عن كل ما فى اللفائف من أسرار، واقتصروا على القول إنها تتضمن ما أسموه تحريفاً لما جاء فى التوراة والإنجيل فى نسخهما التى يصفونها بأنها معتمدة، ولا ندرى ما هى أدلتهم فى اتهام نسخة التوراة الآسينية بالتحريف؟ ولماذا لا تنشر إسرائيل هذه النسخة كاملة، خاصة وأنها ليست ملكها أصلاً، وإنما هى مسروقة من العرب أصحابها الأصليين، لكى نرى ماذا فيها. كذلك فإنهم لم يقولوا لنا ما إذا كانت هذه النسخة قد تضمنت ما ذكره القرآن عن بشارة التوراة بالنبى العربى، وأعتقد أنها لو كانت قد خلت من هذا الأمر لبادروا إلى إذاعته ولما التزموا الصمت كما فعلوا. وإنه لأمر يؤسف له حقاً أن نفقد بهذه البساطة الشديدة هذه الوثائق الخطيرة، ولا نحتفظ إلا بشذرات لا أهمية لها، نضعها فى متحف دون أن نحاول الاستفادة منها، وليس من شك فى أن اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى مؤامرة الاستيلاء على وثائق «قمران» يدل بوضوح على أن هذه الدولة التى تزعم أنها تشجع البحث العلمى، وتأتى إلينا لكى

تمنحنا حفنة من الدولارات لننفقها على بحوث تتناول موضوعات بعينها، إنما تهدف فى الواقع إلى الحصول على أدق المعلومات عنا لكى تقدمها إلى إسرائيل، كما قدمت إليها وثائق قمران وغيرها، فهى تحاربنا فى ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا؛ ولذلك فإنه يجب علينا أن ننتبه إلى المؤامرة التى تحيك خيوطها إسرائيل والغرب لضربنا فى الصميم، وها نحن قد عرفنا أن التاريخ ليس فى صف هؤلاء الناس، بل هو فى صف الحقيقة كما وردت فى قرآننا الكريم.

وبالله التوفيق،،،،

أول صفر عام ١٤١٠ هـ.
أول سبتمبر عام ١٩٨٩ م.

obeikandl.com

obeikandl.com

ثبت المراجـع

أولاً: المراجع العربية

١ــ الكتب:

١ــ القرآن الكريم.
٢ــ الكتاب المقدس (العهدان: القديم والجديد).
٣ــ تفسير ابن جرير الطبرى.
٤ــ تفسير الثعالبى.
٥ــ تفسير الكشاف.
٦ــ تفسير النسفى.
٧ــ تفسير ابن كثير.
٨ــ تفسير الخازن.
٩ــ تفسير ابن الخطيب.
١٠- تفسير الدر المنثور للسيوطى.
١١- تفسير الجلالين.
١٢- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم.
١٣- المصحف المفسر (محمد فريد وجدى).
١٤- فى ظلال القرآن.
١٥- صحيح البخارى.
١٦- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر الهيثمى.
١٧- صحيح مسلم.
١٨- شرح صحيح مسلم للنووى.

obeikandi.com

١٩- سنن الدارمى .
٢٠- إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالى ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٧ .
٢١- الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ، الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٧٥ .
٢٢- الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ، سلسلة البحوث الإسلامية ، مجمع البحوث الإسلامية ، السنة الرابعة عشرة ــ الكتاب الرابع ، القاهرة ١٩٨٤ .
٢٣- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء الثانى ، إدوارد جيبون ، نقله إلى العربية لويس إسكندر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .
٢٤- الإعجاز البيانى للقرآن ، الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .
٢٥- اكتشاف أهل الكهف ، وفيق وفا الدجانى ، مؤسسة المعارف بيروت ، ١٩٦٤ .
٢٦- أهل الكهف ، محمد تيسير ظبيان ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٨ .
٢٧- تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، نقله إلى العربية الدكتور عبدالحليم النجار الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .
٢٨- التاريخ الجغرافى للقرآن ، سيد مظفر نادفى ، ترجمة عبدالشافى غنيم عبدالقادر ، سلسلة الألف كتاب رقم ٦٧ ، الناشر لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٦ .
٢٩- تاريخ الخلفاء ، السيوطى ، القاهرة ١٩٥٢ .
٣٠- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، فيليب حتى ، ترجمة جورج حداد وعبدالعظيم رانق ، دار الثقافة ــ بيروت ١٩٥٨ .
٣١- تاريخ المسيحية ، (مصادر الوحى الإنجيلى) المجلد الثانى من سلسلة دراسات إنجيلية ، يوسف درة الحداد ، بدون تاريخ ولا مكان نشر ولا ناشر .

٣٢- تاريخ موجات الجنس العربى ودولها ومآثرها فى بلاد الشام قبل العروبة الصريحة محمد عزة دروزه، منشورات المكتبة العصرية بيروت ــ صيدا، بدون تاريخ.
٣٣- التصوير الفنى للقرآن، سيد قطب، الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨٠.
٣٤- تفسير سورتى الكهف ومريم، أبوالأعلى المودودى، ترجمة أحمد إدريس.
٣٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، شيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدنى، المؤسسة السعودية، القاهرة ١٩٦٤.
٣٦- الحضارات السامية القديمة، سبينو موسكاتى، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، سلسلة روائع الفكر الإنسانى، القاهرة.
٣٧- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم ميتز، الجزء الثانى، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبو ريدة، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٧.
٣٨- حقائق ثابتة فى الإسلام، محمد محمد عبداللطيف (ابن الخطيب) مطبعة الأفق طهران ١٩٧٤.
٣٩- حياة المسيح، عبادس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة.
٤٠- السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٦٣.
٤١- السيرة النبوية، ابن هشام، مصطفى البابى الحلبى، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٥.
٤٢- سيكولوجية القصة فى القرآن، دكتور التهامى نفرة، رسالة دكتوراه، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧١.
٤٣- العالم العربى اليوم، مورو بيرجر، ترجمة محيى الدين محمد، دار مجلة الشعر، بيروت ١٩٦٣.
٤٤- العرب قبل الإسلام، جورجى زيدان، دار الهلال بالقاهرة.
٤٥- العقيدة والشريعة فى الإسلام، جولد تسيهر، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى، وآخرين، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٥٩.

٤٦- فتوح الشام، الواقدى.
٤٧- فجر الإسلام، أحمد أمين، الطبعة الثانية عشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٤.
٤٨- القاموس العصرى، أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣.
٤٩- القرآن والقصة الحديثة، محمد كامل حسين، دار البحوث العلمية، بيروت ١٩٧٠.
٥٠- قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الثالث المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٢.
٥١- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، عيسى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٩.
٥٢- القصص القرآنى، تفسير اجتماعى، دكتور راشد البراوى، سلسلة القرآن والفكر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨.
٥٣- قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دار الجيل، بيروت ١٩٧٨.
٥٤- القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثانية، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٥.
٥٥- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، الطبعة الثانية، العالمية للتوزيع، القاهرة.
٥٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٥٧- مروج الذهب، المسعودى، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٥.
٥٨- المسيحية فى نشأتها وتطورها، شارل جينيبير، ترجمة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت.
٥٩- المعجزة الكبرى: القرآن، الشيخ محمد أبو زهرة، دار النهضة العربية، القاهرة.
٦٠- معجم البلدان، ياقوت الحموى، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٧٩.

٦١- المقدمة، ابن خلدون، طبعة الشعب، القاهرة.
٦٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد بن على المقريزى، دار صادر، بيروت.
٦٣- موسوعة تاريخ العالم، وليم لانجر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٦٤- الموضوعات فى الآثار والأخبار، هاشم معروف الحسينى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٣.
٦٥- نقد العلم والعلماء (أو تلبيس إبليس)، ابن الجوزى، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
٦٦- التوراة السامرية، نشرها وعرف بها الدكتور أحمد حجازى السقا، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨.
٦٧- دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨.

ب- دوائر المعارف:

٦٨- دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩.
٦٩- الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين، القاهرة ١٩٦٥.

ج- المجلات:

٧٠- مجلة ديوجين، مصباح الفكر (اليونسكو) العدد ١٨، السنة السادسة، ١٩٧٢.

ثانياً: المراجع الأجنبية

God in History, or Progress of Man s Faith in the Moral order of the world. By C.C.J. Baron Bunsen. Translated from the germany by susanna winkorth. Vol. 3, London, Longmans green and Co. 1870.

A History of Christianity, Paul Johnson, Atheneum, New Youk, 1983.

The Encyclopedia Americana international Edition, Crolier incorp. 1980.

The Dead Sea Scrolls, Areappraisal John Allegro Penguin Books, 1984.